

ناتج الألبان

في

العصر الجاهلي

بقلم

السباعي السباعي
مدير سنن دار العلوم

حق الطبع للمؤلف

١٣٥١ هـ ١٩٣٢ م

مطبعة العلوم بشارع الشيخ بجنينة لاط

ناتج الألبان

في

العصر الجاهلي

بقلم

السباعي السباعي
مدرس بدار العلوم

حق الطبع للمؤلف

١٣٥١ هـ ١٩٣٢ م

مطبعة العلوم شارع النخيل بجدة

الفهرس

أدب اللغة وتاريخه	٢ — ٨
العرب	٩
موطنها وأقسامه	٩
الحجاز	١٠ — ١٣
اليمن	١٣ — ١٥
العروض	١٥ — ١٥
نجد	١٥ — ١٦
مدن البوادي	١٦ — ١٦
أصلها وأقسامها ومشهورات قبائلها	١٧
أصلها	١٧ — ١٨
الفتحطانيون	١٩ — ٢٠
العدنانيون	٢٠ — ٢٢
أيامها الكبرى ذوات الاثر في الادب	٢٢
بين نزار ويمن	٢٣ — ٢٤
حروب ربيعة	٢٤ — ٢٧
بين ربيعة وغيرها	٢٧ — ٢٩
بين اللخمييين والفسانييين	٢٩ — ٣٠
حروب قيس	٣٠ — ٣٤
بين قيس وغيرها	٣٤ — ٣٥
أيام ذي قار بين العرب والفرس	٣٥ — ٣٦
أثر تلك الايام في الادب	٣٦ — ٤٠

تابع الفهرس

اللغة

٤١

نشأة اللغات وتعددتها	٤١ — ٤٣
اللغات السامية وأصل العربية	٤٤ — ٤٦
طرق نمو العربية وخصائصها	٤٦ — ٥٢
اختلاف لهجاتها وعوامل تهذيبها	٥٣ — ٦١
معارف العرب في الجاهلية ومعتقداتها	٦٢

المعارف

٦٣

السماء وكائنات الجو	٦٢ — ٦٤
البيطرة والطب	٦٤ — ٦٤
التاريخ والانساب	٦٤ — ٦٥
القيافة والعيافة	٦٥ — ٦٦
العراقة والحكمة	٦٦ — ٦٧
الخط العربي	٦٧ — ٦٨

المعتقدات

٦٨

الاديان

٦٨ — ٦٩

الآوابد

٧٠ — ٧٢

الادب الجاهلي

٧٣

إن لنا أن نظمئن اليه ندرسه ونرويه

٧٣ — ٧٩

إنا نقول بسبق النثر على الشعر

٨٠ — ٨٥

النثر

٨٦

أقسامه من مرسل ومزدوج ومسجوع ثم أنواعه وهي:-

٨٦ — ٨٦

تابع الفهرس

الحكم والامثال	٨٩ — ٩٠
الفاخرات والمنافرات	٩٠ — ٩٩
الخطب والوصايا	٩٦ — ١٠٤
الشعر	١٠٥
أوليته عامة ولدى العرب خاصة	١٠٥ — ١٠٩
طبيعة الشعر الجاهلي وفنونه	١١٠ — ١٣٢
تسميته كثير من أحوال العرب	١٣٢ — ١٤٢
تأثيره ومنزلة رجاله	١٤٢ — ١٤٨
طبقات الشعراء ومنزلة أصحاب المعلقات فيهم تم سبب تسميتها بهذا الاسم	١٤٨ — ١٥٢
منزلة المعلقات من الشعر الجاهلي	١٥٢ — ١٧٨
معلقة امرئ القيس	١٥٣ — ١٥٦
» طرفة	١٥٦ — ١٦٠
» زهير	١٦٠ — ١٦٣
» لبيد	١٦٣ — ١٦٧
» عمرو بن كلثوم	١٦٧ — ١٧١
» عنقرة	١٧٢ — ١٧٤
» الحارث بن حلزة	١٧٥ — ١٧٨
مميزات الكلام الجاهلي	١٧٩
المميزات العامة في النثر والشعر	١٧٩ — ١٨١
» الخاصة بكل منهما	١٨١ — ١٨٤

الصواب	الخطأ	ص	س
ذلك	ذلك ذلك	٣	١٣ ١٤ ١٥
الشرقي	الغربي	١٣	٢٢
قائله	قائله	٢٤	٢١
كصر صرة	كصرير	٤٦	٨
القاف	الفاء	٤٦	١٢
انثوا	انثوا	٥٩	١٠
التراري	الترري	٦٧	٥
وله	ولم	٧٨	٢١
يقول	يقولوا	٨١	١٥
النثر	الشعر	٨٣	٢٢
كفصني	كفصن	٩٥	٩
يتعودوا	يتعودا	٩٨	١٠
بعثه	بعث	١٠٠	١٠
عبد المطالب	عبد الملك	١٠٠	١١
لهدي	لهوي	١٠٥	٤
حوصت	صرحت	١٢١	٨
داود	داود	١٢١	١٩
إذ	إذا	١٦٦	١٣
كأبن	ابن	١٧٧	٧
فكأنهم	نه منهم وهم	١٧٧	٨
الحقيقة	الحقيقية	١١٠	١٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وبه نستعين

تاريخ الادب العربي

في عصر الجاهلي

ادب للغة وتاريخه

انه لحرى بنا قبل التعرض لدراسة أدب اللغة وتاريخه أن نعرض لكلمة
الأدب نعالجها مفردة غير منسوبة الى اللغة معالجة تسايرها منذ الطفولة الى
أن نتمتع معناها ونصار الى الحد الذي نعرفه لها الآن والذي عنده وقعت
تلك النسبة حتى اذا ما تعرضنا لمعنى الادب نكشف عنه ونبين الغرض منه كان
قولنا واقفا على أساس وألينا ذلك المعنى سهل الأخذ على آذاننا وطيد الاستقرار
في أذهاننا .

والعل أول معنى عرف الكلمة الأدب هو وقوعها مصدرا لأدب يأدب
اللازم من باب ضرب بمعنى صنع طعاما يحتفل به ويدعو اليه والاسم من ذلك
المأدبة على أن هذا الفعل استخدم من الباب نفسه ويغلب أن يكون ذلك
في الوقت عينه متعديا بمعنى دعا الى مأدبته ومن ذلك قول طرفة بن العبد ويستشهد
به على المعنيين

نحن في المشتاة ندعو الجنبلى لا ترى الآدب فينا ينتقر
يقول نحن في مشتاة أى الجذب ندعو الدعوة العامة وهى الجنبلى فلا ترى
الآدب فينا أى صانع الأدبة أو الداعى اليها ينتقر فى دعوته فيختص بها
فريقا بحب غيره والنقرى ضد الجنبلى
مكثت الكلمة على هذا المعنى بشعبتيه السابقتين العصر الجاهلى كله تقريبا
حتى اذا ما كان قبيل الاسلام تخطت متعدية ومن باب ضرب أيضا الى معنى
آخر هو التهذيب والرياضة فقل أدبه يأدبه بمعنى هذبه وثقفه كما قيل أدبه
بالتشديد على سبيل المبالغة والتكثير بمعنى عابه بل وبمعنى عاقبه على إساءة
لان العتاب يحقق معنى الأدب على هذا الوجه وهو كل رياضة محمودة يتخرج
بها الانسان فى فضيلة من الفضائل . ومن ذلك قول عتبة بن ربيعة لابنته هند
وهو يصف لها أباسفيان بن حرب زوجا على غير تسمية « يؤدب أهله
ولا يؤدبونه » وقولها له فى الجواب عن ذلك « انى لأخلاق هذا لواقعة
وانى له لمواقعة وانى لاأخذته بأدب البعل مع لزوم قبى وقلة تلقى »
ولما أن جاء الاسلام بتعاليمه الداعية الى مكارم الاخلاق انتشر هذا المعنى
وشاع وأكثر الناس استعماله أيما اكثار وبخاصة قول النبى صلى الله عليه وسلم
« أدبنى ربى فأحسن تأديبى » ثم توسعوا فى كلمة الآدب فأطلقوها على كل
ماله أثر فى التهذيب وحضوا لذلك على التأدب بالمأثور ولا سيما الشعر لما فيه
من الدعوة الى المكارم والتسابق الى المحامد . فمن ذلك قول عمر بن الخطاب
لابنه « يابنى انسب نفسك تصل رحلك واحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك »
وقول معاوية « اجعلوا الشعر أكثر همكم وأكثر آدابكم فان فيه ماثر أسلافكم
ومواضع ارشادكم » وقول عبد الملك بن مروان لمعلم ولده « أدبهم برواية شعر
الاعشى فانه قاتله الله ما كان أعذب بحره وأصلب صخره »

وبهذا انتقلت كلمة الأدب الى معنى الظرف في الخلق وحسن التناول للقول
وكلمة التأديب الى العمل في سبيل ذلك وطاوعتها كلمة التأديب فقليل أدب
يأديب من باب كرم فعل السجبابا والطباع فهو أديب إذا حسن أدبه ومن
ذلك قول سالم بن وابصة وهو إسلامي من قصيدة يحضن فيها على مكارم
الأخلاق والتظرف في القول :

إذا شئت أن تدعى كريما مكرما أديبا ظريفا عاقلا مجدا حرا

إذا ما أتت من صاحب الكزلة فكن أنت محتالا لزلته عذرا

ومن هنا بدأت كلمة الأدب تنحرف عن معناها اللغوي الى هذا المعنى
الاصطلاحي ولما أخذ النجوم في تدوين بعض العلوم من دينية ولسانية آخر عهد
الدولة الأموية انحازت هذه الكلمة الى حذق علوم اللغة لما لها من الأثر في تقويم
اللسان واستكمال أداة البيان ثم كان تقدم العلوم وارتقاء المعارف أيام الدولة
العباسية بما حدث من تقسيم وتمصيل واستجد من ترجمة ونقل فجعل التأديب
مهنة تصدى لها المؤدبون وتصدرهم فيها الأئمة من الرواة والعلماء وقصر الأدب
على مآثور اللغة من نثر وشعر نهكف الناس على دراسته بهذا المعنى حتى وضعت
له كتب خاصة عرفت بكتب الأدب كما عرف غيرها بكتب النظم أو النحو
مثلا. وقد جارت كلمة الأدب في ذلك كلمة الأديب فوسم بها كل من حذق
الأدب على هذا الوجه وعرف من سائر العلوم ما هو للأدب وسيلة أو للأدب به
علاقة وله منه فائدة إذ لا يجملى بالأديب أن يكون من غير الأدب عابلا فان
الأدب ثقافة خاصة لها حاجة وبها اعتقار الى أن ترتكز على ثقافة عامة بدونها
يقل بهاء الأدب وتذهب حاله

قلنا إن الأدب صار على عهد الدولة العباسية مهنة تصدى لها المؤدبون
وتصدرهم في ذلك الأئمة من الرواة والعلماء ولكنهم لم يتجاوزوا كثيرا

مأثور اللغة في روايته ونسبته على أيدي الرواة أو شرحه والافادة منه على أيدي الادباء فبقيت كتب الادب ما بين كتب رواية تخاص للمأثور مجردا وكتب دراية تبحث في معناه إجمالا أو تفصيلا على أن الأخيرة لم تخل من من أبحاث خارجة عن معنى الادب وهي بنسبتها الى العلمية أخرى كأبحاث لغوية من فقه اللغة وأخرى نحوية أو صرفية من علمي النحو والصرف وهكذا استمرت الأبحاث جامدة عند معنى الادب دون تاريخه الذي لا يتحقق غير التحليل والاستنباط وتتبع أطوار المأثور بأنواعه ضعة وارتفاعا وتلمس العال لذلك والاسباب والانكباب على دراسة البيئات من عامة وخاصة لمعرفة ما أنتجته في ذلك التاريخ من آثار. فتاريخ الادب وهو حياته يهتري ما يهتري حياة الامم في كل مظاهر التاريخ السياسي العام. نعم ان المتقدمين في ذلك العهد وبعده قد عالجوا أبحاثا هي من حياة الادب في الصميم كما وازنة بين شيء في عهدين أو بين شاعر وآخر جملة أو في قصصيين وكما الكلام فيما طرأ على اللغة بالاختلاط الا أن ذلك لم يتناول في مجموعه كل ما لحياة الادب من أبحاث كما لم ينسجم مرتبا في سلك النظام الذي ينبغي أن تكون عليه تلك الأبحاث. ثم لم يزل تاريخ الادب على تلك الحال من النقص في بعض وجوهه وانتشاره كله على غير شخصية قائمة في بطون الكتب الى أن هب المستشرقون يضعون أسسه ويرفعون قواعده وتوافروا على أبحاثه يثبتون أصولها ويفرغون الكثير من فروعها حتى أوصلوه الى صورة متميزة قائمة فاذا هو كما نراه الآن علم ذو نظام وترتيب وتقسيم وتبويب وكان لهم في ذلك طريقان إما دراسته موضوعا موضوعا ينتقلون بكل موضوع من عصر الى عصر حتى يستتم أطواره ويستكمل ألوانه وهذا على غنائه قليل وإما دراسته عصرًا عصرًا يتناولون في كل عصر موضوعات الادب واحدا واحدا كما هي الحال في التاريخ السياسي العام وهذا هو المتبع والكثير

فعل المستشرقون ذلك وحيثما أنشئت دار العلوم على نظارة على مبارك باشا للمعارف المصرية اذ ذاك كي تنهض باللغة العربية في بلد انتهت اليه زامة الناطقين بالاضداد كان لزاما أن يكون تاريخ الادب من أول ما يعنى بدراسته في هذا المعهد الجديد وفعلا كان وعهد بذلك أول الامر الى طائفة اهل أكثرهم غناء كما هو بلا شك أبقاهم أثرا المرحوم الشيخ حمزة فتح الله صاحب المواهب الفتحية با كورة ما ألف بالعربية في هذا الباب لكن الشيخ طيب الله ثراه كأنه نظر في الادب الى أنه فن لا يستند الى علم أو أن دراسته بعيدا عن تاريخه تكون الاديب فنهج في مواهبه منهجنا هو الى دراسة الادب أقرب منه الى دراسة تاريخه اذ لم يكده ينهى على عجل منه في تصديره ببضعة أبحاث عامة على الطراز القديم حتى انتقل مسرعا الى المأثور يؤدب به بنيه تأديبا جعل دعائمه الاربع القصائد فالمحركات في الشهر ثم الرسائل فالخطب في النثر فشرح عشر قصائد أجرى بعدها عشر محركات ثم ساق من بعدها عشر رسائل أتبعها مثلها من الخطب دون أن يتقيد في ذلك بعصر معين أو يجري على سنن خاص اذ كان مهيبه كما سبق الامام بطائفة من المأثور تشرح وتدرس كما يتطلب المعنى ويقتضى الاستعراذ على أنه لا يبعد أن يكون رحمه الله قد سبق الى ما فعل لا مدفوعا بتلك النظرة الفنية الا كلفة بل بما تملكه من حب القديم يجري على سنته ويمتدى بهديه وبخاصة اذ وجد طريقه معبدة أمامه بينما الجديد لا يزال مغلق السبل غير واضح الاعلام. ولهذا لم تكدر دراسة الادب تسند الى المرحوم حسن افندي توفيق أحدا بناء دار العلوم الذين زاولوا التدريس حقبة في ألما نيامهد الاستشراق عامة وفي العربية خاصة حتى أبرز لنا صورة لتاريخ الادب هي على صغر ما يصحح أن تكون بحق النموذج الاول فيه ويجب على كل دارس له من بعده مهأأ بدع وفصل ان يكون موقفه منه موقف الحريرى في مقاماته من البدع حيث يقول على سبيل التمثيل

فلو قبل مبعكها بكيت صباية بسعدى شفت النفس قبل التندم

ولكن بكت قبلى فبيج لى البكا بكاهما فقلت الفضل للجنة تقدم

الى هنا ولنا لفتة الى ما تقدم توضيح بها أمراً جديراً بالتوضيح

ذلك أن الأدب أدخل في الفن منه إلى العام ولذا يروى ذوى الطبع والاستعداد

أكثر مما يروى ذوى الجهد والاجتهاد وإن لنا على ذلك لآية بينة هي النبوغ في

باب عن أبوابه أو أكثر وقلما يكون ذلك بالقليل من العمل يقوم به أناس

دون أناس يصلون أيامهم بنهارهم كسحا ونصبائهم هم لا يخرجون بصفة الأدب

فتراهم لا يزالون بهيدين عن أن يجودوا نثراً أو شعراً في أى باب يتخيرون

على أن ملكة الأدب مع هذا لا تنهياً وسائلها ولا يتم نضجها بالاعتكاف على

المأثور وحده يحفظ ويروى بل لابد من درس تاريخه والاحتكام في ذلك إلى

ما قعد من قواعد ووضع من نظم بحكم الظروف وتحت تأثير البيئات مع مساهمة

عوامل النمو وطبائع الارتقاء. وإذا تكون دراسة تاريخ الأدب وسيلة إلى تكوين

الأديب ويكون من وقف عند الوسيلة بهيذا عن الغاية جديراً باسم العالم

دون الأديب .

هذا وإن قلنا أن المتبع في دراسة تاريخ الأدب لآية أمة أن يسايريه تاريخها

السياسي جنباً إلى جنب فقد وجب إذا أن يكون أول عصر للأمة العربية

عصرها الجاهلي ومدته مائتا سنة على الأكثر قبل الإسلام غير أن كلمة عن

العرب في موطنها وأصلها وأقسامها وقبائلها وأيامها واجبة قبل ذلك

أن تكون .

العرب

موطنها - أصلها - أقسامها - مشهورات قبائلها - أيامها الكبرى
ذوات الأثر في الأدب .

أولا - موطنها

موطن العرب الأول الذي منه درجوا فانتشروا في الأرض هو تلك الجزيرة
المنسوبة إليهم في الجنوب الغربي من آسيا وهي جزيرة متسعة الأرجاء مترامية
ال أطراف يتصل بها من الغرب بحر القلزم المعروف بالبحر الأحمر ومن الشرق
بحر فارس وعمان ومن الجنوب بحر الهند وتضرب شمالا إلى الشام والعراق
فيدخل فيها جزء من كلتا باديتيهما وعد بعضهم منها أرض الجزيرة بين دجلة
والفرات لسكنى العرب قديما إياها

وهي تنقسم أربعة أقسام الحجاز واليمن ومع كل تهامة ثم العروض ونجد
ويكاد يكون ذلك التقسيم طبيعيا فإن الحجاز وهو سلسلة جبالها العظيمة يمتد
في الغرب منها على مقربة من البحر الأحمر من الجنوب إلى الشمال بين أرض
منخفضة غربية هي الهامة وأخرى مرتفعة شرقية هي النجود وفي نحو الثلث
من تلك السلسلة جنوبا تتفرع جبال تليث قليلا إلى الشمال الشرقي. فما إلى
الشمال منها الحجاز وتهامة. وما إلى الجنوب اليمن وتهامة غير أن اليمن تمتد على
ساحل بحر الهند جنوبا إلى بحر عمان شرقا. ثم مالى الشرق من الحجاز نجد إلى
بحر فارس وبادية العراق شرقا وإلى بادية الشام شمالا. أما الأرض المعرضة بين

اليمين جنوبا ونجد غربا وشمالا وبحر فارس شرقا فهي العروض لا عراضها بين
كل هذه الأقسام ما عدا الحجاز الذي ينفصل عنها بجزء من نجد يمتد من جنوب
جبال سلسي الى شرق جبال تليلث
وهذه كلمة عن كل قسم تنتظم حاله الطبيعية وما كان عليه سياسيا
قبل الاسلام

١ - الحجاز

إقليم طيب الهواء ليس به كسائر بلاد العرب نهر يجري ولاكن فيه العيون
المتفجرة من الجبال المعتضدة بالسيول والأمطار الممتدة من واد الى واد وعليها
قراهم ونباتهم من حبوب وخضر وفواكه ورياحين. ومن حيوانه الخيل الجيدة
والابل والضأن والمهر ومن وحوشه بقر الوحش وحمرة والغزلان والظباء
والذئاب والضباع والثعالب والفهود والنمورة والاسود. أما طيوره فمنها الدجاج
والحمام والرخم والنعام والحدأ والبوم والغربان
وللحجاز حاضرتان المدينة المنورة به ومكة المكرمة بتهامته

فمكة بالميم والباء ومن أسمائها أم القرى والبلد الامين وبها جميعا نطق
القرآن الكريم وتسمى كذلك صلاح وقد ورد كثيرا في الاشعار ولا سيما في
القديم. وهي واقعة في بطن واد تحف به من جميع جهاته الجبال فأبو قبيس من
الجنوب والشرق وحراء من الشرق والشمال وبه الغار الذي كان يعبد فيه
رسول الله صلى الله عليه وسلم وقيقعان من الشمال والغرب وثور من الغرب
والجنوب. وأول ما كانت سكنى مكة كانت لهاد ثم خلفهم عليها العالقة
ولما عظم أمر قحطان نزلها ابنه جرهم واليه تنسب جرهم الثانية لاجرهم عاد

فلم يزل أمر مكة بيد هاشم حتى رفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، وفي جرهم
أصهر إسماعيل وبقي هناك فملكوه عليهم وانتقل الأمر من بعده إلى ابنه نابت
ولكن جرهم أخذته ثانية ومنها انتقل إلى خزاعة من الأزد من قحطان أيضا
فلم تزل فيهم مفاتيح البيت يقومون بسدانة حتى أعاده إلى ذرية إسماعيل قصي
ابن كلاب ثم أنشأ قصي دار الندوة بمكة فكانت محل تشاور قريش وكان إليه
أمرهم حتى مات فانتقلت الرياسة إلى ابنه عبد مناف ولكن بقيت سدانة البيت
مع ابنه عبد الدار قيل لأنه هو الذي انطلق بمفاتيحه ففتحه لقريش حين أخذها
أبوه من خزاعة . ومن عبد مناف انتقلت الرياسة إلى هاشم بن عبد مناف
فإلى عبد المطلب بن هاشم جد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي فتح مكة
بعد الإسلام فانتقلت إليه رياسة القديم والحديث . ومما يذكر هنا إقراره صلى الله
عليه وسلم بنى عبد الدار على سدانة البيت كما كانت لهم من قبل

هذا وقد أ كسب مكة وضع البيت بها منذ عهد إبراهيم لدى العرب عامة حرمة
دونها كل حرمة وتقديسا ما أوغله في القلوب من تقديس فكان الملوك من حمير
وكندة ولخم وغسان يحججون إليها ويدينون لقريش بها ويكفي من تعظيمهم
إياها أن جعلوا حولها شقة حراما يحرم صيدها وقطع نباتها . ومما ضاعف في
عظمتها وفي حرمة البيت بها ما فعل الله بأصحاب الفيل وقد جاء أبرهة يقودهم
يريد هدم الكعبة وصرف العرب عنها إلى حج القليس باليمن وهي كنيسة
ابتنها بصنعاء وبالغ في تجميلها فإرسل الله عليه طيرا أبابيل ترميهم بحجارة
من سجيل فجعلهم كعصف مأكول . ثم زادت تلك العظمة قدسا وجلالا بمجيء

الاسلام دعظما أمر هذا البيت وجاعلا الحج اليه فريضة على كل مسلم ومسألة
استطاعا اليه سبيلا

والمدينة هي الحاضرة الثانية وقد غلب عليها هذا الاسم واسمها القديم يثرب
وبها نطق القرآن الكريم وقد سماها الله تعالى الدار في قوله (والذين تبوءوا
الدار والايمان) وسماها النبي صلى الله عليه وسلم طيبة وطابة من حسن الرائحة
أو تمام النقاء . وهي تقع في مستو من الارض شماله جبل أحد وجنوبه جبل عير
وشرقه البقيع وغربه العقيق . وهي قديمة العمارية كمكة قيل أول من نزلها يثرب
ابن عييل من العالقة وبه سميت ثم خلف العالقة عليها قوم من بني اسرائيل
نزلوا اليها على عهد موسى بن عمران . وما زالوا بها حتى كان سيل العرم باليمن وتفرق
من أهله كثير كان منهم الاوس والخزرج الذين امتلأ كوها على بني اسرائيل
فلم تنزل يدهم حتى هاجر اليها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وكما شرف الله
مكة بالحج الى البيت بعد الاسلام شرف المدينة بشواء جثمان رسول الله صلى الله
عليه وسلم فيها ودعه كثير من جلة الصحابة والانصار

هذا وبالبحجاز غير حاضريه من المدن والقرى والاودية كثير

منها الطائف في بطن من جبل غزوان شرق مكة وهي شديدة البرودة
كثيرة الناكهة وأهلها من ثقيف وقيل ثقيف من بقايا ثمود وبهذا كان يهجر
الثقيفون وكان الحجاج من الذين يدفعون ذلك وهي احدي القريتين المذكورتين
في قوله تعالى (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم)
فالقريتان مكة والطائف والرجلان الوليد بن المغيرة من مكة وعروة بن مسعود
من الطائف . وبين مكة والطائف واد كثير التخل هو عكاظ وبه كانت تقوم
سوق العرب الكلامية كما سيأتي بعد .

ومنها جدة فريضة مكة على ساحل بحر القلزم ميناء عظيمة كانت تذهب اليها

المراكب من مصر واليمن وهي ميقات من قطع البحر من جهة عيذاب. «وهي المدينة التي خلفتها القصير»

ومنها خيبر إلى الشمال الشرقي من المدينة وهي مدينة قديمة ذات حصون كانت لبني عتبة من اليهود قبل الاسلام والخيبر في لغتهم الحصن ولبنى قريظة والتضير بعده وهي معروفة برداءة الهواء وكثرة الوباء وبجماها يضرب المثل قال الشاعر

وقفت بها أبكى وأشهر سخنة كما اعتاد محموما بخيبر صالب
وكانت كثيرة النخل يحمل تمرها الى الجهات القصوى وفي ذلك يقول
الشاعر : —

فانك واستبضائك الشهر نحونا كمستبضع تمر الى أرض خيرا
وعلى مقربة من خيبر الى الشمال الغربي وادي القري وبه الحجر نزل ثمود
في القديم. وبين خيبر والمدينة قرية فداك
وفرضة المدينة الجار ومقامها تقوم ينبع الآن. وعلى مقربة منها إلى
الجنوب الشرقي ماء بدر الذي تنسب اليه الغزوة الكبرى بعد الاسلام.

٢ — اليمن

اليمن إقليم متسع النواحي كثير الخيرات تسمى أرضه الخضراء لكثرة
مزارعها ونخيلها وأشجارها يخرج من الحبوب والفاكهة ما تخرج المنطقتان
المعتدلة والحارة وحيوانه حيوان الحجاز يزيد في أهليه البقر والبغال والحمير
وفي بربه الزراف والقردة فضلا على ما بأرضه من المعادن الكثيرة المتنوعة.
وهو ينقسم بضعة أقسام. فاليمن الأصلية على امتداد الحجاز جنوبا جبالا
وتهاائم وإلى شمالها الشرقي نجران كما إلى جنوبها الغربي حضرموت الممتدة

طويلا على ساحل بحر الهند وعلى هذا الساحل يمتد الشجر فهرة فظفار ثم عمان المتصلة بساحل عمان وفارس . وفيما بين هذه الاقسام كلها غربا وجنوبا وشرقا والعروض شمالا توجد صحراء الاحقاف المعروفة بالربع الخالي وبها كان اصل منازل عاد ولا يعرف عنها الا ن سوي القليل .

وقد شهدت اليمن حضارة قديمة تضارع في جلالها وعظمتها أقدم الحضارات وأول ما عرف فيها الملك للعرب كان لعاد وهذه هي الطبقة العادية وخلفها القحطانيون وعظم ملكهم في الحميريين والتبابعة من بعدهم ومنهم بلقيس ولم يزل ملكهم في سلطان وعتاد حتى جاء السيل فتفرق كثير من شعوبهم في سائر أنحاء الجزيرة وضعف أمر من بقي منهم باليمن ومن ثم تمكنت الحبشة من امتلاكها ثم الفرس من بعدها وبها كانوا الى الاسلام .

واليمن (شأن كل بلاد كثيرة الخيرات قديمة العمران) ملائى بالمدن التاريخية ذات الحصون المنيعة والقصور المنيفة والآثار التي تشهد على رقي عادي له في التاريخ مقام كبير وقد بدأت المكشوفات الحديثة تنير عما هو هنالك دفين . فحاضرتها صنعاء في جنوب اليمن الاصلية وهى من أحسن البلاد سكنا وأطيبها هواء تكاد تحاكي دمشق في كثرة مياهها وأشجارها وبظاهرها قصر غمدان الكثير ذكره في الاشعار .

ومن مدنها ما رُب الى الجنوب الشرقى من صنعاء وكانت من أجمل بلاد اليمن حسن تربة واطف هواء وهى الموصوفة في القرآن بالبلدة الطيبة وتسمى أيضا سبا نسبة الى بانيتها وبنو سبا هذا هم الذين أخبر القرآن أن كان اسكنهم فيها آية جنتان عن يمين وشمال فأعرضوا فأرسل الله عليهم سيل العرم وبذلهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل ثم مط وأثل وشيء من سدر قليل

ومنها عدن وهى فرضتها على ساحل البحر المحيط وكانت أعظم المراسى

ومحط التجار من عامة الاقطار « الحجاز والحبشة والسند والهند وجزائر
المحيط والصين »

٣ - العروض

والعروض على ما تقدم من موقعها تنقسم قسمين داخلي هو اليمامة
وساحلي هو البحرين. فاليمامة أكثر بلاد العرب نخيلاً ومنها في القديم زرقاء
اليمامة المضروب بها المثل في حدة البصر وفي الحديث مسيلمة الكذاب وقصبتها
اليمامة. والبحرين كثيرة النخل كذلك وفيها غيره الحب والفاكهة ومن مدنها
الداخلية هجر المضروب بها المثل في تصدير التمر ومن الساحلية القيظيف.

وكانت اليمامة في القديم لجديس وطسم والبحرين لعاد وجاء من بعدهم
في الاثنيتين القحطانيون ومن كان بعدهم على اليمن الى أن جاء الاسلام إلا أن
اليمامة وحدها آخر عهد الفرس كانت لبني حنيفة وآخرهم هوذة بن علي الذي
كتب اليه النبي صلى الله عليه وسلم كما كتب الى الملوك

٤ - نجد

أما نجد فكان الحجاز نباتاً وحيواناً إلا أنها أحسن أرض في جزيرة العرب
هواءاً وأطيبها شمساً ولذلك انبرى الشعراء قديماً وحديثاً يلهجون بذكرها
ويترنمون برأي عطرها وشذاها قال الشاعر

أقول لصاحبي والعيس تموى بنا بين المنيفة فالضمار

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشيّة من عرار

ألا يا حبذا تفحات نجد وريا روضه بعد القطار

وأهلك إذ يحل الحى نجداً وأنت على زمانك غير زار

شهور ينقضين وما شعرنا بانصاف لهن ولا سرار

وهي تنقسم قسمين نجد السافلة وهي ما وليت العراق وبها صحراء الدهناء
ونجد العالية وهي ما ولي الحجاز وفيها أجباً وسامى جبلا طي الوارد ذكرها في
كثير من الاشعار ومنها أرض العالية التي كان يحميها كليب التغلبي ومن أجلها
قتل فنشبت حرب البسوس من بعده أعواماً طويلة بين بكر وتغلب ابني وائل.
هذا ولا تعلم لنجد سكنى في القديم قبل ولد عدنان ومن خالطهم من
القحطانيين بعد السيل

مدن البوادي

ومن المدن العربية ببادية الشام تيماء بالغرب منها وكانت حاضرة طي وبها
الابلق الفرد حصن السموع بن عاديا ثم دومة الجندل بالوسط وكانت لبني
كلب وفيها كان التحكيم بين علي ومعاوية.

ومنها ببادية العراق الحيرة مقام الملوك اللخمين وفيها الخورنق والسدير
المهروفان ثم الانبار وكان الاكاسرة يدخرون بها الحبوب كيلا تسوس .
ومنها بالجزيرة ديار بكر وريعة ومضر الثلاث نسبة الى من سكنها من أبناء هؤلاء
على أنهم سكنوا معها غيرها هناك كالموصل ونصيبين كما نرح الى الجزيرة غيرهم
من القبائل الاخرى كالطائيين .

هذا وما كان يدور على أسنة الشعراء كثيرا ذكر الدارات والبرق كدارة
جبل وبرقة ثم يدقصدون بالاولى كل أرض مستديرة بين جبال تكون ذات
سهولة وياض وبالثانية ما كان فيها غلط وبريق من حجارة ورمال تختلطان
بالطين . وقد ذكر صاحب القاموس أن البرق تنيف على المائة وعددها منسوبة
الى ما أضيفت اليه مرتبا على الحروف كما ذكر أن الدارات تنيف على المائة والعشر
وذكرها كلها كذلك بعد أن قال رحمه الله انها لم تجتمع لغيره مع بحتمهم وتنقيهم
فجزاه الله خيرا .

ثانياً - أصلها وأقسامها ومشهورات قبائلها

العرب ذلك الجيل من الناس الذين كان لسانهم العربية وكانت سكناتهم الأولى تلك الجزيرة المنسوبة إليهم سيان في ذلك الحضر سكان المدن والبدو الرجل الذين اختصوا باسم الأعراب فأطلق اسم العرب لذلك تلي الحضر أو كاد. والعرب أمة سامية ترجع في أصل نسبها إلى سام بن نوح عليه السلام وقد اعتاد المؤرخون تقسيمها قسمين عرباً بائدة وهم الذين بادت ذرايرهم وانقرضت تفاصيل أخبارهم قبل مجيئ الإسلام بقرون وأخرى باقية وهم الذين جاء الإسلام والجزيرة العربية تعج بأبنائهم وتضيق عن أخبارهم

فالعرب البائدة وقد يقال لهم العاربة أو العرباء يرجعون عن قرب إلى إرم ابن سام والمشهور من قبائلهم عاد بن عوص بن إرم وثمود بن جاثر بن إرم وعبد ضيخم وجديس ابنا إرم وطسم وعمليق ابنا لاوذ بن إرم.

فعاد كانت منازلهم الأولى بالاحقاف وهم الذين بعث الله إليهم نبيه هودا عليه السلام فلم يؤمنوا فأهلكهم بالريح العقيم سيخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما كما أخبر القرآن وكانوا قد بلغوا من القوة واتخاذ الصانع لاخلود مبلغاً عظيماً ولذلك يقال للشيء يكون قديماً وعظيماً عادى نسبة إليهم

و ثمود كانت منازلهم الحجر بوادي القرى وقد بعث الله إليهم نبيه صالحا عليه السلام فلم يؤمنوا فأهلكهم بالصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين كما جاء بذلك أيضاً القرآن ولم يكونوا أقل من عاد قوة وعتاداً فقد جابوا الصخر بالواد وكانوا ينحتون من الجبال بيوتا فارهين

وعبد ضيخم كانوا يسكنون الطائف فهلكوا فيمن هلك ويقال إنهم أول

من وضعوا الخط العربي كما يقال إنهم يرجعون الى ثمود ولذلك قد تنسب
ثقيف بالطائف الى بقايا ثمود التي كانت بعيدة عن مهاجرهم

وجديس وطسم ويقال إنهما من عاد كانت دنار لهم باليمامة فأباد بعضهم
بعضا بالحرب في أخبار طويلة يذكرها القصاصون ليست محل ثقة واعتقاد

وعمايق كانت أمة عظيمة يضرب بها المثل في الطول وتفرقت منها شعوب
سكنت عمان والبحرين والحيجاز والعراق والجزيرة والشام ومصر ومنهم بالاخيرة
فراعنة الرعاة وقد بادوا جميعا أو اختلفت شخصياتهم في أعم غيرهم

ومن القبائل التي تنسب إلى البائدة أيضا جرهم الاولى تميزا لها عن جرهم
الثانية وقد يكون التمييز بجرهم عاد وجرهم قحطان وكذلك أميم وجاسم وباربل
ومدين أبناء مدين بن ابراهيم على بعض الاقوال وهو ضعيف

والعرب الباقية قسما قحطانيون ويقال لهم المتعربة أو المستعربة عندهم وهم
الاولى بالعاربة والعرباء كما يقال لهم العاربة أو العرباء عندهم قصر على الاولى
لفظ البائدة وهم منسوبون إلى قحطان بن عابر بن شاخ بن أرنفشد بن سام
وعدانيون ويقال لهم المتعربة أو المستعربة كالقحطانيين كما يقال لهم المستعربة
بقط عندهم من خص القحطانيين بالمتعربة وهم منسوبون إلى عدنان بن أدد بن
مقوم بن ناحور بن تيرح بن يعرب بن يشجب بن نابت بن اسماعيل بن ابراهيم
عليهما السلام وأبو ابراهيم آزر أو تارح بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شاخ
ابن أرنفشد بن سام وليس الى النسب فيما خلف عدنان طريق صحيح انما
المجمع عليه أن اسماعيل ابن ابراهيم وابراهيم يرجع الى سام فهذان الشعبان الباقيان
ساميان كالشعب البائد واذا تكون الامة العربية جمعاء سامية من غير ما خلاف

فيلتقى العدنانيون بالقحطانيين في عابر والقحطانيون بالبائدة في سام

القحطانيون

ولد قحطان يعرب وجرهم فانتقل جرهم الى الحجاز كما سبق ولما جاء اسماعيل مكة خالطه بنوه بها واستوطنوها معه وهم جرهم الثانية وبقي يعرب باليمن فولد يشجب وولد يشجب سبأ وأنجب سبأ في اثنين حمير وكيهان واليهما ترجع جميع قبائل اليمن

فالي حمير ترجع قضاة والمشهور من أحيائها سبعة جرم ونهد وبقيتا باليمن وعذرة بجنوب الحجاز وجهينة وبلى شماله بالترتيب وجرهم شمالهما فيه وعلى شاطئ الفرات تم كلب بدومة الجندل وتبوك وأطراف الشام. والى عذرة ينسب العشق والتيم ومما يحكى في هذا أنه قيل لرجل منهم دابال العشق يقتلك يا بني عذرة فقال لان فينا عذرة وجمالا وقيل لا آخر منهم دابال الرجل دنكم بموت في هوى امرأة انما ذلك ضيف فيكم يا بني عذرة فقال أنا والله لو رأيت النواظر الدعج تحتها المباسم الفاج فوقعها الحواجب الشرج لا تذموا اللات والعزى وذكر بعض النسابة أن قضاة من العدانية والصحيح ما تقدم فقضاة واسمه عمرو هو ابن دالك بن عمرو بن مرة بن زيد بن دالك بن حمير واعل ذلك شبه عليهم من أن أم قضاة دات عنها دالك وهى حامل فيه فتزوجها بعد بن عدنان فولدت قضاة دلى فراشه فتبناه فنسب اليه ثم رحل قضاة الى اليمن فكان له دالك بالشحر ويقال ان له تبرا معروفا بجبل هناك

والى كهلان ترجع شعوب كثيرة كانوا يتداول الملك وبنى حمير باليمن ثم انفردت بنو حمير به وبقيت بطون كهلان على كثرتها تحت إمرتهم الى أن تقاصر ملك حمير فكانت الرياسة بالبادية لبنى كهلان. وأشهر أحياء كهلان أحد عشر «١» طيء وهم أكثر أحياء اليمن بطونا فاليهم يرجع خمسة عشر بطنا نزع

منهم كثير الى الحجاز ونجد فغلبوا بنى أسد على أجبأ وسلمى فعرفا بجبلى طيء
 وخرج بنو أسد الى الشرق من ذلك والى بولان أحد بطون طيء ينسب
 الرجال الذين قيل فيهم إنهم أول من كتبوا بالخط العربى بعد العرب
 الأولى «٢» الأزديهم بطون كثيرة باليمن وعمان ومنهم خزاعة بمكة والأوس
 والخزرج بالمدينة والغسانيون آل جفنة بالشام «٣» نخم ومنهم المناذرة ملوك الحيرة
 بالعراق «٤» كندقو كان لهم ملك قديم بحضر موت وآخر بعده بنجد ودومة
 وكان آخر ملوكه حجير والد امرئ القيس «٥» عاملة بشمال الشام . ثم مذحج
 وهمدان ومراد وجذام وأشعر وأنمار ولم تعرف لبطونهم فى القديم خارج
 اليمن ديار

وبعض النسابين يقولون إن أنمار اليمن أولاد أنمار بن نزار العدناني
 ولكنهم أقاموا بها فنسبوا اليها والصحيح أنهم من اليمن وجاء اللبس من أنه
 كان لأنمار بن نزار بنت زوجها من أراش بن عمرو الكهلاني فولدت له ولدا
 أسماه على اسم جده لأمه فأنمار اليمن إذا هم بنو أنمار بن أراش وأنمار الحجاز
 بنو أنمار بن نزار على أنه قيل إن أنمار بن نزار لا عقب له إلا هذه البنت
 والأنمار فى قحطان دون عدنان وفى هذا وجهه .

العدنانيون

ولد عدنان معدا وولد معد نزارا وأنجب نزار فى أنمار وإيدوربيعة ومضر .
 فأنمار سبق القول فيه والراجح أنه لم يعقب الا فى تلك البنت التى زوجها من
 أراش الكهلاني كما سبق وأنمار لليمن دون الحجاز .
 وإيداد فارق الحجاز وسار بأهله الى أطراف العراق وبها أقام ولم يزل النسب
 راجعاً إليه فى كل بنيه اذ لم يصلوا الى كثرة على تطاول الأيام .

وربيعة أعقب في ضبيعة بالحجاز ولم تكثر بطونها وفي أسد ربيعة وفيها
كثرة فمنها عنزة بنخير وجديلة ومن جديلة عبد القيس بتهامة نجد والبحرين
والنمر بالجزيرة ووائل ومن وائل تغلب والبحرين ونجد والحجاز والشام.
وبكر ومن بكر بنو حنيفة وبنو عجل باليمامة وبنو شيبان والبحرين ومنهم سدوس
ومضر أعقب في قيس عيلان والياس

ومن قيس عيلان جاءت الكثرة التي لم تبين معها بطون ربيعة فغلبت قيس
على سائر العدنانية حتى قيل قيس وبنو قيس فمنها عدوان بالطائف وسليم بهالية نجد
قرب خيبر ومازن وباهلة باليمامة وغطفان بين جبلى طيء ووادي القرى الى
المدينة ومنها أشجع وعبس وذبيان ومن ذبيان فزارة ومن فزارة بدر ومازن
الثانية ثم من قيس أيضا هوازن وهي أكثرها بطونا فمنها ثقيف على الاصح بالطائف
وبنو سعد بالحجاز وبنو جشم بالسروات وهي تلال تفصل بين نجد وتهامة من
البحرين الى الشام ثم بنو عامر باليمامة والبحرين ونجد والحجاز والشام والجزير
ومنهم على التسلسل بنو كلاب فبنو هلال فبنو نمر فبنو عقيل

أما الياس قاله يرجع نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أعقب في قعدة وطابخة
ومدركة فقمعة لم يشتهر عقبه وطابخة منه حنينة بشمال الحجاز وضبة بشمال نجد
وبالهراق وتميم بشرق نجد وشمالها ومن تميم العنبر وحنظلة ومن حنظلة يربوع ومن
يربوع العنبر الثانية. بقي مدركة ومنه هذيل بالطائف وخزيمة ومنها الهون بين مكة
والمدينة ومن الهون عضد والديش المعروفان بالقارة وكانوا رماة ومن خزيمة أيضا
أسد وفيها كاهل ودودان وكانوا بأجأ وسلمى الى أن أجاتهم عنها الى الشرق طيء كما
سبق ثم كنانة بمكة وتهامة الحجاز ومنها عامر وعمر وملك وملك وعبد مناة
والنضر ومن مالك فراس ومن عبد مناه غنار وبكر وليث والحارث ومدلج وضمرة أما
النضر وهو قريش فابنه مالك وابن مالك فهر وأبناء فهر غالب والحارث ومحارب وابنا

غالب أوى والادرم وأبناء أوى كعب وسعد وخزيمة وعامر وأبناء كعب مرة وعدي
وأبناء مرة كلاب وتيم ويقظة وأبناء كلاب قصي وزهرة وأبناء قصي عبد مناف
وعبد الدار وعبد العزي وأبناء عبد مناف هاشم عبد شمس ونوفل والمطلب وأبناء هاشم
عبد المطلب ونضلة وأسد وصيفي وأبو صيفي وأبناء عبد المطلب عبد الله والدر رسول
خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم والعباس والدا الخلفاء العباسيين وأبو طالب والد أمير
المؤمنين علي بن أبي طالب وحمة وانقرض عقبه وأبو لهب والحارث أعقبا ولم
يعرف عقبهما ثم الزبير وعبد الكعبة وضرار وحجل وقثم والغيداق ولم يعقبوا

ثالثا - أيامها الكبرى ذوات الأثر في الأدب

لعلنا لا نغلو إذا قلنا إنه لم تتوافر لدي أمة ما أسباب التناحر والتقاتل والتنابد
والتطاحن بقدر ما توافرت لدى أمة العرب في جاهليتها وبخاصة الشعوب العدنانية
منها فقد انتشر وافي أنحاء الجزيرة العربية يطلبون لما شيتهم كلاً لها وينتجعون لارتداد
مواقع الغيث أنحاءها فإذا ما محل بقبيلة دوطن طابوا آخر ينزعون ندهم غيرهم انزاعا
بأسنة الرماح وظلمات السيوف وما أسرع ما يهرعون إلى الغارة على عدوهم يلهبونها
والى ظهور خيولهم يعتلونها فيكون الطعن والنزال والضرب والقتال ويكفي أن تكون
غارة بين قبيلتين أسا تقوم له الحرب على قدم وساق فتبقى أما إذا و آجالا يشب أوارها بين
آونة وأخرى طلبا للثأرات أو انتقاما بما ل يغصب وقد يستجير المطلب بقبيل يأبى إلا
أن ينصره قياها بحق الجوار ويدافع عنه كما يدافع عن نفسه فيغزى لذلك ويقا تل
وتكون هناك حرب أخرى وغالبا ينضم فيها حليف لحليف على أنه لم تخل الجزيرة
العربية من حروب حفز اليها الدفاع عن ملك أو الانتصار لمتبوع أو التعصب على
عمومه أو في خصوصية ولا نظن أن أيام العرب الكبرى إلى غير ذلك ترجع فطلب
العيش والاخذ بالثأر وحماية الجار وساعدة الحليف ثم ما قفينا به من الدفاع عن الملك

ونصرة المتبوع والتعصب كل أولئك كان من أجله تقوم الحروب
وإذ سبق هنا أن الهداية كانت المسعر لهذه الحروب وتقدم في ذكر الأنساب أن
كثيرتها كانت تزخر بتغلب بكر في ربيعة ومهوازن وغطفان وجشم وسليم في قيس
وبتميم في طابخة ثم بكنانة وقريش في مدركة فانا سائقون لذلك أشهر حروب
هذه القبائل مسبوقة ببعض ما كان بين نزار واليمن ومتلوة ببعض آخر هو
ما كان بين العرب والفرس مع ذكر بعض ما كان لليمن خلال ذلك لمناسبة

بين نزار واليمن

يوم الكلاب الثاني — بين مذحج وتميم وسببه أن تهما نزلات الكلاب وهو
ماء بين اليمن والبحرين طوله مسيرة يوم فعلمت مذحج فأغارت عليها فدارت الدائرة على
مذحج وكان رئيس تميم قيس بن عاصم ورئيس مذحج عبد يغوث وقد أسروا في أسره
هذا قال قصيدته المشهورة التي مطاهاها :

ألا لا تلوماني كفى اللوم ما بيما فما لكما في اللوم خير ولا ليا

قالها يلوم قومه على هزيمتهم ويعتذر لنفسه عن أسره ذاكرا ما كان له قبل من
بلاء ومعددا بعض مفاخره الماضية كما لبى تميم مفاخره بهذا اليوم الذي نادى فيه
قيس وقد واث مذحج الأدبار يا آل تميم لا تقتلوا إلا فارسا فان الرجال لكم
ثم جعل يرتجز ويقول :

لما تولوا عصبا هواربا أقسمت لا أظعن إلا راكبا

لاني وجدت الطعن فيهم صائبا

يوم خزازي — ويقال له خزاز جبل يتوسط الطريق بين مكة والنصرة
وهو من أقدم الأيام بين نزار واليمن وكان رئيس نزار فيه على غلبة الظن كاليما
التغلي أو هو قد أبلى فيه بلاء بينا وهزمت اليمن فيه هزيمة نكراء

وبعده خرجت نزار عن سلطة اليمن ونقضت جياية تبا بعته بعد أن كان رسولهم يأتي
ومعه كاتب وطنفسة يجلس عليها فيأخذ من أموال نزار ما يشاء وليس بمعروف
عن هذا اليوم شعر يعاصره ولا مكنه ذكر على ألسنة الشعراء بعد كهملو بن
كلثوم التغلبي حيث يقول :

ونحن غداة أوقد في خزازي رقدنا فوق رقد الرافدين
فكنا اليمين إذا التقينا وكان اليسرين بذو أيمنا
فصالح صولة فيمن يليهم وصلنا صولة فيمن يلينا
فآبوا بالانهاب وبالسدايا وأبنا بالملوك مصفدينا

حروب ربيعة

أشهر البسوس بين تغلب وبكر ابني وائل وذلك أن تغلب أخذت بعد
خزازي مكانا عليا في العرب وملك كليبها فعظم شأنه وعلا علوا كبيرا وبلغ من
كبريائه أن صار يحمي مواقع الغيث والوحش فيقول كلاً كذا في حمى
ووحش كذا في جوارى وحدث أن كانت البسوس بنت منقذ خالة جساس
ابن مرة عند ابن أختها هذا وكانت لها ناقة رأت أبل كليب ترد فوردت
معه فرماها كليب بسهم خرم ضرعها فوات وهو يشخب لبنا فلما رأتها البسوس
قذفت خمارها عن رأسها وذهبت إلى جساس صائحة واذل جراه فأحسبه ذلك
على ما كان من ظلم كليب وحسد بكر لتغلب فذهب إلى كليب مسرعا فطعمه
فقصم صلبه وكان معه عمرو بن الحارث الشيباني فطعمه فقطع بطنه فوقع
يفحص برجله وقيل في مضرب المثل (تجاوزت شيئا والأحصى) وهماءان
إن قاتله جساس إذ قال له كليب حين وقع أغثنى بشربة من ماء وفي تصدق ذلك
يقول عمرو بن الهم

وان كلييبا كان يظلم قومه فادركه مثل الذي تريان
فلما حشاه الرمح كف ابن عمه تذكر ظلم الاهل اى اوان
وقال لجساس اغثنى بشربة والا فخير من رأيت مكاني
فقال تجاوزت الاحص وماءه وبطن شبيث وهو غير زؤان
فهاجت بمقتل كليب حرب البسوس التى مكثت طويلا من الدهر بين تغلب
وبكر ابى وائل وكان المهمل اُخو كليب المعروف بالزير لما كان عليه من اللهو
واستدامة التحدث الى النساء حامل لوائها على بكر وشيخان ومن والاهما لا يقنعه فى
ذلك مقنع ولا يقف فى القتال عند حد . يدل على ذلك أمثال قوله

أكثر قتل بنى بكر برهم حتى بكيت وما يبكى لهم أحد
آليت بالله لا أرى بقتلهم حتى أبهرج بكرا أينما وجدوا

وقوله

قتلوا كليبا ثم قالوا أربعوا كذبوا ورب الحل والاحرام
حتى تبید قبائل وقبيلة ويعض كل مثقف بالهام
وتقوم ربات الخدور خواسرا يمسحن عرض ذوائب الايتام

وقوله

يال بكر أنشروا لى كليبا يال بكر أين أين الفرار
ولما أسرف مهمل فى الدماء وكانت لتغلب على بكر أيام كثيرة كالذئاب
وعنيزة والخنوشم واردات الذى قتل فيه بجير بن الحارث بن عباد أو ابن أخيه
وكان الحارث اعتزل تلك الحروب فلما بلغه قتل بجير هذا قال نعم القليل قتيلا
أصلح بين ابى وائل وظهر أن المهمل أدرك به ثأر كليب وجعله له كفؤا
فقليل له إن مهمل لما قتل بجيرا قال له « بؤشسع نعل كليب » فغضب الحارث وتولى

أمر بكر ولم يزل يقتل تغلب حتى تفرقت وهرب المهمل وفي ذلك يقول الخارث
وكانت له فرس تدعى النعامه

قربا مربط النعامه منى إن بيع الكريم بالشسع غالى
قربا مربط النعامه منى لقحت حرب وائل عن حيال
لم أكن من جناتها علم الله وإني بحرها اليوم صالى
قرباها فى مقربات عجال عابسات يثبن مثل السعالى
لا بجير أغنى قتيلا ولا رهط كليب تراجروا عن ضلال
يا بجير الخيرات لا صلح حتى نملأ البيد من رعوس الرجال
وكان اليوم الذى انتهى بتفرق تغلب وهرب مهمل يوم قضية وهو يوم
تحلاق اللحم وبه تفخر بكر. ولما هرب مهمل انتهى الى جنب وهم بطن من
مذحج وكانت معه ابنته فيخطبونها فتمنع فاجبروه وأمهروها جلودا وفي ذلك
يقول متحسرا على عزفات

أعزز على تغلب بما لقيت أخت بنى الاكرمين من جشم
أنكحها فقدھا الاراقم فى جنب وكان الحباء من آدم
لو بأبانين جاء يخطبها زمل ما أنف خاطب بدم
ولمهمل فى رثاء كليب وبكائه القصائد الطويلة
منها التى مطلعها

أليلتنا بذى حسم أنيرى اذا أنت انقضيت فلا تحورى
والتي مطلعها

بت ليلي بالانعمين طويلا أرقب النجم ساهرا أن يزولا
والتي يقول فيها

كليب لا خير فى الدنيا ومن فيها اذا أنت خليتها فيمن يخليها

وعما يذكر من شعر العاطفة المتبحرة هنا شعر جلييلة أخت حساس وامرأة
كليب إذ قالت لها أخت كليب يا هذه اخرجي عن مأتمنا فانت أخت واربنا
وشقيقة قاتلنا وشيعتها بقولها حين خرجت «رحلة المهتدي وفراق الشاهت» فقالت
جلييلة وكيف تشمت الحرة بهتك سترها وترقب وترها أفلا تقوانين «نقرة الحياء
وخوف الاعتداء» ثم أنشأت تقول

يا بنّة الاقوام ان شئت فلا	تهجلى باللوم حتى تسألى
فاذا أنت تبينت الذي	يوجب اللوم فلومى واعذلى
ان تكن أخت امرىء ليمنت على	شفق منها عليه فافعللى
جل عندى فعل حساس فيا	حسرتى عما انجلى أو ينجلى
فعل حساس على وجدى به	قاصم ظهري ومدن أجلى
يا قتيلا قوض الدهر به	سقف بيتى جميعا من عل
هدم البيت الذى استحدثته	وانثنى فى هدم بيتى الاول
يانسائى دونكن اليوم قد	خصمنى الدهر برزء معضل
خصمنى قتل كليب بلظى	من ورائى ولظى من أسفلى
ليس من يبكى ليوميه كن	إنما يبكى ليوم مقبل
يشتفى المدرك بالثار وفى	دركى ثارى ثكل انشكل
انى قاتلة مقتولة	والله أن يرتاح لى

بين ربيعة وغيرها

من أعرف الحروب بين ربيعة وغيرها ما كان بينها وبين تميم وذلك أن
بكرًا اعتادت أن تنتجع أرض تميم ترعى بها فاذا ما أرادت الرجوع لم تدع
عورة تصيبها ولا شيئًا تظفر به الا اكتسحتته وكان ذلك منذ القديم فاجهت

تميم رأيها على مدافعة بكر وبهذا كانت لا تنطفئ بينهما نار حرب ولهذا
كانت تميم تنضم الى تغلب على بكر في حرب البسوس ثم إن الغلبة أكثر الايام
كانت لتميم وان كانت الايام حافلة بالمفاخر اكمل الطرفين
فمن ايام بكر على تميم يوم الزورين وهما جملان أتت بهما تميم مقرونين
مقيدين وقالوا لا نولي حتى يولي هذان «والبغير اذا قيد فهو زور أو زوير ما حوذ
من الزيار وهو ما يزر به البيطار الدابة» فاخبرت بكر رئيسها وهو عمرو بن
قيس بن مسعود الاصم بذلك فقال وأنا زوير كم إن خشوها فخشوني وإن
عقروها فاعقروني ثم التقوا فاقتتلوا قتالا شديدا انهزمت فيه بنو تميم وقتل
منهم أبو الرئيس النهشلي وغيره كثير وأخذت بكر الزورين وفي ذلك يقول
الاغلب العجلي

جاءوا بزورهم وجئنا بالاصم شيخ لنا قد كان من عهد إرم
فكر بالسيف اذا الرمح انحطم كهمة الليث اذا ما الليث هم
كانت تميم معشرا ذوى كرم مخلصة من الغلاصم العصم
قد نفخوا او ينفخون في فيحم وصبروا لو صبروا على أمم
اذ ركبت ضبة أعجاز النعم فلم تدع ساق لها ولا قدم
ويقول رجل من بني سدوس

ياسلم إن تسالى عنا فلا كشف عند اللقاء ولستنا بالمقاريف
نحن الذين هزمنا يوم صبيحنا جيش الزويرين في جمع الاحايف
ظلموا وظلمنا نكر الخيل وسطهم بالشيب منا وبالمرد الغطاريف

ومن ايام تميم على بكر يوم بلقاء الحسن «والحسن جبل» وفيه قتل بسطام بن قيس
سيد بني شيبان قتله عاصم بن خليفة الضبي فقال ابن غنمة الضبي يرثيه وكان

مجاورا اذ ذاك في بني شيبان وخاف أن يقتلوه

لا تم الارض ويل ما أجنث بحيث أضر بالحسن السبيل

يقسم ماله فينا ويدعو أبا الصهباء إذ جنح الاصيل

فان تجزع عليه بنو أبيه فقد فجعوا وحل بهم جليل

بمطعام إذا الاشوال راحت الى الحجرات ليس لها فصل

ومنها البيت المشهور مخاطبه فيه

لك المربع منها والصفايا وحكمك والنشيطه والفضول

ومما يعد من حروب ربيعة وان كان الباعث فيه لا يعدو الدفاع عن ملك

ما كان بين شرحبيل ومسلمة ابني الحارث بن عمرو الكندي وكان قد ملك

على بكر بن وائل برضاهم من قبل أحد التباة لما تقاطعت أرحامها وغلبتها

سفهاؤها فأحسن قيادها وغاب بها على كثير مما كان في أيدي ملوك الحيرة

الليخمييين وملوك الشام الفسائيين فلما مات اختلف ابنه هذان على الملك فكانت

بكر مع شرحبيل أكبر الاخوين وانضمت تغلب نكاية في بكر الى مسلمة وكان

يوم الكلاب الاول وفيه قتل شرحبيل

بين الليخمييين والفسائيين

وعلى ذكر الدفاع عن الملك وذكر الليخمييين والفسائيين نقول إن من الحروب

العربية الكثيرة الوقائع الشديدة الايام ما كان بين هذين الجذمين من اليمن لان

ضلع الفساسنة كان مع الروم وضلع الليخمييين كان للفرس فسلطت كلتا الدولتين

تبعهما على الآخر ومن أشهر ما كان بينهما من أيام يوم حليلة وما يوم

حليلة بسر ارتفع فيه من العجاج ما غطي عين الشمس حتى ظهرت الكواكب

وكان بين الحارث بن أبي شمر الغساني والمنذر بن ماء السماء اللخمي وحليمة هذه ابنة الحارث ونسب اليوم اليها لأنها أخرجت لابن لها من كتابه طيب تطيبوا منه والمركن الاجانة

بين الاوس والخزرج

وقل أن توجد حرب داخل الجزيرة لليمن غير ما تقدم الا ما كان بين الاوس والخزرج وهو قليل وأشهر أيامه يوم بغاث وهي مزرعة في ديار بني قريظة من اليهود وكانت لهم رهائن عند الخزرج فغدر بها عمرو بن النعمان البياضي رئيسهم فاعانوا عليه حضير الكتائب رئيس الاوس وفيه انهزمت الخزرج واكن أصيب حضير بجراح مات متأثرا بها وفي ذلك يقول خفاف بن ثدبة وكان له صديقا يرثيه

أتاني حديث فكذبه وقيل خليك في المرمس
فيا عين بكى حضير الندى حضير الكتائب والمجلس

حروب قيس

١ - بين عبس وذبيان

أهمها داحس والغبراء بين عبس وذبيان وكان سببها أن قيس بن زهير العبسي وحمل بن بدر الفزاري « وفزارة من ذبيان » تراهننا على مائة بعير يأخذها من يكون له السبق وكان داحس فحلا لزهير والغبراء حجير الحمل وكان في طرف الغاية شهاب كثيرة فأكن فيها حمل فتيانا وأمرهم أن يردوا وجه داحس اذا جاء سابقا فلما برز داحس قال قيس « جرى المذكيات غلاء »

فذهبت مثلاً والى كنان لما شارف الفاية وثب الفتية في وجهه فردوه عنها فسبقت
الغبراء وامتنع قيس أن يدفع الرهان لما كان من عمل الفتية وكاد الناس يسكنون
لولا أن حذيفة أخا حمل بعث ابنه مالكاً إلى قيس يشدد في طلب الرهان فقتله
قيس فاجتمع الناس واحتملوا ديته مائة عشرة وألكن حدث أن علم حذيفة
بنزول مالك بن قيس بهيدا عن قومه فعدا عليه فقتله فقاتل عبس مالك بمالك
وردوا علينا ما لنا فإني حذيفة فقال الربيع بن زياد العبسي وكان الذي احتمل
الدية عن قيس ولم يكن في العرب مثله ومثل إخوته وكان يقال لهم الكلمة لبئسما
فعلتم بقومكم قبلنا الدية ورضيتم بها ثم غدرتم ردوا الدية فلم يسمعوا فنهض
عبس وحلفائها إلى فزارة وذيبيان ورئيسهما حذيفة وبدأت حرب داحس التي
مكثت طويلاً حتى كاد ينقرض لها الطرفان وأيامها دامية كثيرة منها المريقب
لعبس على فزارة وفيه قتل عنترة الفوارس ضمضم المري أبا حصين وهرم
الذين توعدا عنترة فقال فيهم من معلقته

والقد خشيت بأن أموت ولم تدر للحرب دائرة على ابني ضمضم
الشامي عرضي ولم أشتمهما والناذرين إذا لم آلقهما دمي
إن يفعلوا فلقد تركت أباهما جزر السباع وكل نسر قشعم
ومنها الهباعة لعبس على ذيبيان وفيه قتل حمل بن بدر وأخوه حذيفة ومثل بهما
فغظم على غطفان قتلها وكذا سائر قتلى الهباعة وتجمعت على عبس فعرفت
عبس أن ليس لها مقام بارض غطفان فخرجوا إلى اليمامة فنزلوا ببني حنيفة
ثم غابروهم إلى بني سعد فغدروا بهم ولم تزل الأرض بعبس نابية وذيبيان
ومن تحمس لنصرتهم من غطفان ينالون منهم حتى أصالح بينهما هرم بن سنان
والحارث بن عوف المريان وتحملا الديات وإلى ذلك يشير زهير وكان منقطعا

الى مدح هرم في معاقته حيث يقول

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قریش وجرحهم
يمينا لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم
تداركما عيسا وذبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
وقد قلتما إن ندرك السلام واسعا بمال ومعرفة من القول نسام
فأصباحتما منها على خير موطن بعيدين فيها من عقوق ومأثم
عظيمين في عليا معد هديما ومن يستبح كنزا من المجد يعظم
الى آخر ما أفاض في هذا الموضع . وفي قتلى الهبأة كثير من المراثى والاشعار
لما أصابت من سادة وما وقع فيها من تشف وتمثيل

٢ - بين هوازن وغطفان

ومن حروب قيس أيضا . ما كان بين هوازن وغطفان وذلك أن هوازن
كانت تؤدي إتاوة الى زهير بن جذيمة العبسي فأتته عجوز من كلاب بسمن
في نحى واعتذرت اليه وشكت سنين تتابعته فذاقه فلم يرض طعمه فدعس
المرأة بقوس في يده فاستلقت على قفاها منكشفة فتألى خالد بن جعفر الكلابي
ليجعل ذراعه في عنقه حتى يقتل أحدهما ثم استقل زهير عن قومه بابنيه ورقاه
والحارث فيخرج خالد ومعه معاوية الاخيل جد ليلى الاخيلية وأحس زهير
فركب فرسه القعساء ولكن معاوية وخالدا أدركاه فطعن معاوية القعساء
فقلبت زهيرا وخر خالد فوقه فرفع المغفر عن رأسه وضربه معاوية على مفرقه
ضربة بلغت الدماغ وانصرفا دون أن يغنى فيهما ضرب ابني زهير الكمال
عدتهما وفي ذلك يقول خالد

بل كيف تكفرتني هوازن بعدما أعتقتهم فتة والدوا أحرارا
 وقتلت ربهم زهيرا بعد ما جددع الألف وأكثرا الأوتارا
 وجعلت مهر بناتهم ودياتهم عقل الملوك هجائنا وبكارا
 ثم حدث أن خالد بن جعفر هذا انتقص الحارث بن ظالم المري النيباني
 وكان رئيس غطفان بعد زهير بقواه ألا تشكر يدى عندك أن قتلت عندك
 سيد قومك زهيرا وتركتك سيدهم فقال سأشكر وحقد عليه وقتله منصرفهما
 من لدن الاسود بن المنذر أخى النعمان وكان الانتقاص بمجلسه ثم هرب
 فكانت لذلك أيام بين هوازن وغطفان وكان للحارث في هربه هذا أخبار طويلة
 وأحاديث شتى ذات ضروب وألوان ثم كانت منيته على يد يزيد بن عمرو
 الغساني وكان جارا له فقتل في قومه وهو مستجير فعفا عنه ثم قتل ثانية فلم
 يتركه دون قصاص وقتله

ومما كان بين هوازن وغطفان غير هذه أيام تلت اغارة عبد الله بن الصمة
 الجشمي على غطفان يوم اللوى واستياقه سرحهم ثم لحاق غطفان به وهو
 مقيم ينتقع وقتلها إياه في وقعة جرح فيها أخوه دريد صاحب القصيدة التي
 منها البيت

أمرتهم أمري بمنهرج اللوى فلم يستبينوا النصيح الاضحى الغد
 والتي يرئى فيها عبد الله ويذكر ما كان من خلفه له في الإقامة للانتفاع
 وكان من أشد الايام بعد ذلك يوم الصلعاء وفيه قتل دريد هذا

٣ — بين سليم وغطفان

ومن حروب قيس أيضا ما كان بين غطفان وسليم على أثر نزاع قام
 م ه أدب

بمكاظ بن معاوية بن عمرو بن الشريد السامي وهاشم بن حرملة القطفاني
تهيأ معاوية بعده وغزا هاشما على كره من أخيه صخر فقتل هاشما وتنابت
لذلك أيام لم يقفها الا إصابة صخر بطعنة اعتل بها طويلا ثم مات وليس
يجهن أحد ما كان للخنساء أختها في هذا الباب من بكاء ورتاء .

بين قيس وعيرها

ولم تك الحروب في قيس قاصرة على بطونها بل كن بينها وبين غيرها
أيام أشمها : —

١ - بين عامر وتميم

فمنها ما كن بين عامر وتميم وسببه أن الحارث بن ظالم المري الدياني
قائل خالد بن جعفر الكلابي العامري على مامر آفا التيجا الى معبد بن زرارة
التميمي شطرا من أيام هربه فأجاره وعلمت بذلك عامر فغزت بني تميم يوم
رجحان وفيه أسر معبد وأبت عامر فيه الادية الملوك وأبى أخوه لقيط دفعها
عملا بوصاة أبيهما زرارة حتى لا تذؤب بهم ذؤبان العرب ومات معبد في أسره
هزالا لحبسه نفسه عن الطعام والشراب. ثم انضمت ذبيان لتميم وغزوا عامرا
وقد انضمت اليها عبس لما كان بين عبس وذبيان في داحس والغبراء فالتقى
الجمعان في شعب جبلة وهو من أعظم أيام العرب ولكن دارت الدائرة على تميم
أيضا فقتل لقيط ولحق تميما من ذلك الضعف الكبير

٢ - بين سليم وكنانة

ومنها ما كان بين سليم وكنانة وسببه أن ربيعة بن مكدم من بني غراس بن

غنم وهو فارس الظهينة قتل ثلاثة فوارس من قيس أرادوا استلابها منه بوادي
الآخرم وهو الكنانة وكانوا مغيرين عليه مع دريد بن الصمة فاغارت سليم
بعدئذ على كنانة يوم الكديد وفيه قتل ربيعة فتبع ذلك أيام من كنانة على
سليم كانت الغلبة فيها دولة بين الطرفين . وفيها وفي يوم الظهينة كثير من
رائق الشعر وجليل الرثاء والفخر

٣ - بين هوازن وكنانة

ومنها ما كان بين هوازن وكنانة وأشهرها الفجار الرابع . وسببه أن
البراض بن قيس الكنانى وعروة الرحال رجل هوازن كانا عند النعمان وقد
جهز غير اللطيمة وهى إبل تحمل تجارة لكسرى الى أسواق العرب عن البر
والطيب فقال من يجيرها فقال البراض أنا أجيرها على بنى كنانة فقال النعمان
ما أريد إلا رجلا يجيرها على أهل نجد وتهمة فقال عروة أكاب خلع يجيرها
لك أبيت اللعن أنا أجيرها فقال البراض أعل بنى كنانة يا عروة قال وعلى
الناس كلهم فدفعها النعمان الى عروة وحنق عليه البراض فتبعه وهو لا يخشى منه
شيئا فقتله واستاق اللطيمة الى خير فقامت لذلك حرب بين هوازن وكنانة
تشيب لها ولدان وجعلت تتجدد كل عام فى مياعدها من الأشهر الحرم
حتى كانت خمسة أيام فى أربع سنين تدعى الناس بعدها الى السلم بدافع من
أنفسهم كأن العرب كانت تستعد لحدث جديد هو حلول الوفاق محل الخلاف
قبيل مجيء الاسلام الذى ألف بين قلوبهم فاصبحوا بنهمة اخوانا .

أيام ذى قار بين العرب والفرس

وذو قار ماء قريب من البصرة وكان سببها أن كسرى غدر بالنعمان بن

المنذر وقتله في الدائن وكان النعمان قد أودع سلاحه هانيء بن قبيصة بن هانيء
ابن مسعود الشيباني وجعل عنده ابنته هنداء وهي حرقه فطالب كسرى السلاح
وأبى هانيء فكانت الحرب وفيها تضامت العرب وانتصرت نصرا مبينا قال
فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان قد بعث « اليوم أول يوم انتصفت فيه
العرب بن العجم وبني نصرنا ». ولأيام ذي قار في نفس كل عربي مقام يعتز
به ولذلك أكرمت العرب جميعها من التفاخر بها والتباهي بذكرها وفيها كانت
خطبة هانيء المذكور يحرض قومه بكرا على القتال ومنها

يا هشر بكر هالك معذور خير من ناج فرور ان الحذر لا ينجي من القدر
وان الصبر من أسباب الظفر المنية ولا الدنية . استقبال الموت خير من استدباره
الطعن في ثغر النحور أكرم منه في الاعجاز والظهور ياكل بكر قاتلوا فما
للمنايا من .

رابعاً - اثر تلك الايام في الادب

تقدمنا آنفاً بطائفة من أيام العرب ذكرنا بواعثها ووضعنا أسبابها لتكون
تمهيدا لما نعالجه الآن من أثر تلك الايام في الادب . واذ كانت تلك البواعث
وهذه الاسباب متصلة بعيشهم وان شئت فقل هي نفس عيشهم وكان الشعر
ديوانهم الذي اليه يحتكون وبه يفتخرون فقد فاض عليه من الايام ما لولاه
لغاض معينه وصوح نبته فلم نره كما نراه الآن تلك الروضة المعطار ذات
العصون الناضرة والاطيار الشادية

حببت الحرب الى نفوس العرب وهي طبيعة فيها صفة الشجاعة والنجدة
والبأس والقوة بقدر ما بغضت اليهم الخور والضعف والجبن والهلع فكانوا في
حضهم عليها واصطلائهم نارها وانتشائهم بلذو الظفر فيها يقولون الشعر شعر

الحماسة والفخر فيصدر منهم جزل الالفاظ شريف المعاني نبيل المقاصد يحرك
من القلوب الضعيفة ويهون الموت على الاعزة الاحياء ثم يفتنون الى بكاء تلامهم
وتعداد بلائهم تخليدا لما آثرهم وذكر اثم فاذا هذا شعر الوجدان الباكي والعاطفة
الاليمة ممزوجة بما يخفف على الحى رزء المفقود ويجعله يأنف أن يموت حتف
أنفه ويعد من النقيصة والعار ألا تكون منيته بطعنات الرماح وخربات السيوف
وأى أمر غير هذا جعل أباتمام الطائي يسمى ما اختاره من شعرهم ديوان
الحماسة ويجعل أكثر من نصفه خالصا لها ولما كان حتما مقضيا بعدها من الموت
فالتأبين فالرثاء .

تأمل عيون الشعر الجاهلى حيث ترى العين قذافة لا ينقطع ماؤها لا تفي
ترمى بكل مقطعة منه مما سكت الالفاظ متعاشقة المعاني تجدها من هذين البابين
وهل اغيرها ومنشؤها ذكر النجيلة فى الميت واستخلاص الحياة للحى من
الاتصال بقرارة النفوس وتحريك ما كن فيها مثل ما لها اللهم لا . ثم يتصل
بهذين البابين عن قرب التناخر باجارة الجار واغاثة الملهوف ونصرة المظلوم
وعن بعد التمدح بقري الاضياف وايواء الطارقين وما لنا نبعد بالقري والايواء
عن مواطن الشجاعة والاقدام وهما راجعان الى الكرم والمكرم والشجاعة
صنوان ومن أصل واحد ينبتان هو السماحة وما تقتضيه من بذل يقع فى المال
فيكون سخاء وكرما ويرتفع الى أقصى غاية الجود تضحية بالنفس فيكون
شجاعة واقداها . أفلا نحس اذن أن الشعر العربى اذا تجرد مما أثر فى هذه
الناحية الواسعة الاطراف يصبح قاعا صافصفا أو يعدم أقل ما يصاب جواهر
تاجه ووسائط عقوده فيذهب ماؤه ويضيع بهاؤه

ثم كان من عادة العرب فى الحروب أن يسيروا ليلا ليدهموا بالغارة صبيحا
فكان من هذا سرى الليل وتعريسه وهول ذلك وخوفه وما اتصل بالسرى

من ذكر الليل نفسه في دجنته وظلمائه أو في سمائه بما يسطع فيها من بدر أو يهدى
من نجم وهذا منتهى آخر من القول بين التأثير في اللغة والتأثر بالأيام
وحتى إذا هدأت الحرب ووضعت أوزارها كانت تفيض على اللغة بالمتع
الكثير منها ففي الدعوة إلى السلم ونفعها والتكيب عن الحرب وضررها من
الخطب والوصايا والحكم والمواعظ وضرب الأمثال والشواهد ما يستنفد جملها
وأخذ كثرتها ولو تتبعنا هذه الناحية نحصيها مع ما اتصل بها من صلاح ووفاء
ومغامر ومحامل وديات يفرق فيها بين عربي صريح وآخر مقرف أو هجين
لوجدنا الشطر الأكبر في النثر الجاهلي إلى هذا ينسب كما نسب نظيره في الشعر
إلى الحماسة والرياء وما تعلق بهما أو انشعب منها

وان لنا أن نعتبر عناية العرب بأنسابها وحفظها لمفاخرها وأحسابها إلى ذلك
الحد الذي لم تعرفه أمة غيرها راجعة إلى واعيها بالحرب أيضا حتى إذا مدهمت
داهية كان كل أعرف بقبيله وعشيرته وناصره ومولاه وإذا ما طلب ثأر كان
معروف المحل ومن هو منه قريب أو بعيد فإذا ما حانت المفاخرة والمنافرة
كانت الأصول التي تقع عليها معروفة غير مجهولة لا تطاوع عربيا أن يدعى
غير أبوته أو ينتسب إلى غير قومه ولذا كان الادعاء نورة في العرب محل
ضعة منهم وتهجين

ثم ما نظن عناية العرب بالخيال تلك العناية البالغة مبالغها الدقيقة في
تناولها إلا منسوبة الفضل إلى الأيام : لما تستتب شجاعة الشجعان فتري منهم
البلاء والغناء إلا بالخيال عليها يكرون وبها يقتحمون وهل أدل على شدة التلازم
بين الشجاعة والخيال من تسمية الرجل على الفرس فارسا فإذا ما كان على
بغل أو حمار قيل بغال وحمار وألا يكون أخذ الفرس من الفرس وهو المصير
والسكر والخيال من الخيلاء وهي الدل والعجب آية أخرى على هذا التلازم

واذن فما تبع تلك العناية من الاكثار الكثير في أسماء الخيل ونتائجها وعنتها وصفاتها مما ألفت فيه كتب ولم يسعه كتاب ثم ما كان من تفضيل العربي لجواده على نفسه في الزاد وجعله وإياه جزءا لا يتفصل منه في التفاخر بالاستبسال إن هو الا من الحرب نشأ ولا أجل القتال كان .

أوليس على أيام العرب وحروبها قامت صناعة السيوف والرماح وسائر عدد الحرب والقتال من مغافر ودروع ولحم وسروج وهذا ضرب آخر أفاض على اللغة الغنى والثراء مفردات وتراكيب وأخيلة وأوصاف . فالسيف في صقاله ولعانه وحديثه ومضائه والرمح في اعتداله واستوائه وصلابته وملكه انه ثم غيرها مما تقدم فيما لهما من صفات وأحوال وليس ذلك بالخفى المجهول قد فتح في اللغة فتحة مبيها ونماها نموا كبيرا .

على أن العرب لم تقف عند الخيل ووصفها والآلات ونعتها بل تلفتت الى ما حولها من حيوان غير أليف فاذا بالأسد قد امتلك عليها لبها وشغل منها قلبها وفؤادها فلم كان الشاغل دون غيره ألا إن ذلك لما جبل عليه العربي من الروع بالقتال وتمجيد الجرأة على المقارعة والنزال فأخذ يعنى بهذا الحيوان يبحث عن أحواله ويتشبه به في صفاته وأفعاله حتى أحله من نفسه محلا رفيعا وجعله على سائر الوحش سلطانا ومليكا وليس يخاف على أحد ماورد باللغة عن هذا الحيوان من أسماء ونعوت وما قذفت به ألسن الحمية والنجدة عنه من آيات اكبار واجلال . ثم لم يعدم غيره من الحيوان الضارى أن ينال من ذلك بقدر ضراوته كالتمورة والفهود والضباع والذئاب وان كان فيما اختص به الأسد دونها من نبل وكرم وعلو وترفع فوق ما تقدم عنه من قوة وجرأة ما جعله المقصود لدى العرب بالتجلة والاعظام والمتشبه به في كثير من الصفات والخلال وصرفهم عن غيره الى القول فيه اكثر ما يقولون

وهل أقدمت العرب على تسمية قبائلها وبطونها وأولادها وفتيانها
بالكريبه من أسماء الحيوانات كأسد وفهد ونمر وذئب ثم من غير الحيوان
كحجر وصخر وجشم وعبس إلا محبة لتلك الاسماء وتفاؤلا لبنيتهم أن يكونوا
من صفات ذواتها على كمال فيحموا الحوزة ويدافعوا عن العشيرة ويكونوا
للحروب أهلا ولمقارعة الأبطال كفاء .

وهل اذ انطوى بساط الجاهلية بما كان عليه من شجار وعراك واشتباك
وقتل بما قد نشر الاسلام من لواء سلامه ومد من ظل عدله ووثامه انقطع
مدد الايام للادب أو وقفت حركتها الدافعة له كلا فقد مكثت أيام الجاهلية
الاولى مددا للشعراء غير مقطوع ومفاخر يبتعثون ثرائها غير خاق ولا
مجدوع نقرأ ذلك مستجيدين ولا آثاره حامدين مستكثرين من لدن صدر
الاسلام في مفاخر الفرزدق وجريير الى حيث قطع العصر العباسي عهد شبابه
وصباه على أيام البحتري وأبي تمام .

واذن فهذه كلمة انتظمت أثر الايام في الادب وما كان لها عليه من
فضل ونماء وهي على ما ترى تتناول الشعر والنثر كليهما أمثلة لها وشواهد
عليها الا ما قل منها ومن ثم يسوغ لنا أن نقول غير مبالغين ولا متجننين إن
أيام العرب وأدب العرب يكادان يكونان شيئا واحدا لا شيئين ولذا كان
الحض على تعرف أيامهم في القديم بمثابة الوصاة على تعلم آدابهم لا لبس في
ذلك ولا كبير افتراق.

اللغة

نشأة اللغات وتعددتها — اللغات السامية وأصل العربية
طرق نمو العربية وخصائصها — اختلاف لهجاتها
وعوامل تهذيبها

أولا — نشأة اللغات وتعددتها

احتاج الإنسان إلى التفاهم وكان التفاهم بالألفاظ ليسرها وعمومها أفيد
أنواع الدلالات فاستعملها فنشأت اللغات والكن في كيفية هذه النشأة، خلافا
طويلا دب بين العلماء الأقدمين ولا زال جاريا منهم إلى المحدثين
فهباء بن سليمان الصيمري يقول إن دلالة الألفاظ على معانيها ذاتية
لا توقيف فيها ولا تواضع مستدلا على ذلك بوجود مناسبة بين كثير من الألفاظ
ومعانيها وبأنه لولا هذه العلاقة الذاتية لكان اختيار لفظ دون آخر ترجيحا
بلا مرجح . وهذا القول مردود في جملته وتفصيله وإلا لزم أن يفهم الإنسان
اللغة بل اللغات جميعا دون تعليم وهذا مالا يكون . أما تلك المناسبة فمع ثبوتها
لبعض الألفاظ وخصوصا الصوتي منها لا تنهض دليلا لانعدامها في الأعم
الأغلب ويكفي أن يكون مجرد خطوط اللفظ دون غيره على ذهن مرجحا
له ودافعا إلى اختياره على أن تلك المناسبة لو كانت الأساس لما كان في لغة
من اللغات لفظ يستعمل في المعنى وضده كما هو مشاهد وكثير .

وأبو الحسن الأشعري يقول إنها توقيفية أتت بوحي من الله سبحانه وتعالى

وتبعه في ذلك أبو علي الفارسي محتجا بقوله تعالى « وعلم آدم الأسماء كلها »
ولكن الآية ليست بالدليل القاطع في الموضوع إذ يجوز أن يكون المراد
بالأسماء أسماء الملائكة أو بالتعليم الاقدار على المواضعة لا التعليم المباشر.

والذي عليه الجمهور وبه قال ابن جني في خصائصه هو أن اللغة تواضع
واصطلاح وجدت المناسبة أم لم توجد تحقق القصد في التواضع أم جاء عفوا
بالارتجال . وأن الإلهام من الله سبحانه وتعالى بمعنى الاقدار ثابت في الحالين
وبيان ذلك أن الحيوان يعبر عن وجدانه بأصوات تختلف باختلاف مطالبه كما
نراه ولما كان الإنسان لابد أن يفصله في ذلك لما فيه من قوة الإدراك ومطاوعة
الصوت فقد استغل مطاوعة الصوت في تنويع الحروف وقوة الإدراك في
ارتجال بعض اللفاظ فكان بهاتين القوتين عندما يريد أن يفهم أو يستفهم
يصيح لغيره بصوت محكي أو مرتجل يتوسم فيه الإفصاح عما يريد مضيفا إليه
ما يزيده إيضا من إشارة حسية أو قرينة حالية فإذا ما فهم غرضه منه كرره
وكرره حتى يستقل بأداء معناه دون حاجة إلى إشارة أو قرينة وعلى هذا
النحو منه ومن غيره تكونت النواة الأولى لللفاهم الضروري ثم أخذت تسمع
وتنمو بما يتفقون عليه من غير تعمل ولا قصد حتى كانت لغة الإنسان الأولى.
وبقياس نشأة هذا الإنسان على ما هو مشاهد في نشأة الطفل وما هو معروف
عن لغات الشعوب الهمجية التي لا تزال في حدود الطفولة يمكن القول بأن
نطقه كان أولا بالأصوات الدالة على الانفعالات النفسية أو على محاكاة الطبيعة
ثم بالالفاظ المسمي بها بعض المحسوسات حوله وتلا ذلك النطق بالمصادر ثم
الأفعال وأسبقها المضارع وهكذا انتقل التدرج إلى أسماء الإشارة والضمائر
والموصولات ثم المشتقات وبعد ذلك كله جاءت الحروف.

تلك هي نشأة اللغة أما كيف تعددت إلى لغات فمنشأ ذلك حتما هجرة طوائف الانسان وابتعاد بعضها عن بعض حيث رأت كل طائفة في بيتها ما لم يره غيرها فاضطرت إلى وضع كلمات لم يضطر اليها سواها . ثم ان عدم اتفاق الخواطر على فرض تماثل البيئة في بعض الاحيان جعل الخلاف واقعا لا محالة في التعبير ولو إلى درجة غير بعيدة . فالى البيئة والخواطر معا يرجع تعدد اللغات ومن هنا كانت تتقارب اللغتان وتتباعدان قريبا وبعدا كما كانتا قد تختلفان عن قرب أو تتشابهان على بعد ويغلب أن يكون ذلك قد حدث قبل نوح عليه السلام ولكن حادثة الطوفان عفت على ما سبقها وجعلت الناس لا يعرفون تعدد اللغات إلا بعدها فنسبوا أصولها إلى أبنائه الثلاثة حام ويافث وسام كما فعلوا في ارجاع أنساب الانسان فارضين أن لغة نوح ومن كان معه في السفينة كانت واحدة ولكن بنيه لما انتشروا في الارض بعد ذلك اختلفت لغتهم لما تقدم في أسباب نشأة اللغات ونسل من كل منهم شعوب وقبائل ذات لغات متعددة واصلها ترجع في اصلها إلى أبيهم وإذن فأصول اللغات ثلاثة

١ — اللغة الحامية نسبة إلى حام ومنها معظم لغات أفريقية كالحبشية

والمصرية القديمة

٢ — اليافثية نسبة إلى يافث وتعرف بالآرية نسبة إلى آر بن يافث وهي

لغة أوربة وكثير من شعوب آسية في غير الغرب

٣ — السامية نسبة إلى سام وهي لغة غرب آسيا مهد النبوة والرسالة وبها

نزلت الكتب المقدسة فأثرت بهذا وبتوسط موطنها في كثير من فروع

اللغتين السابقتين حتى إن بعضها قد عد منها كما سيأتي في السكتانية بعد .

ولما كانت العربية « وهي لغتنا وموضوع بحثنا » أحد فروعها ناسب أن نذكر

كلمة عنهما مع أصل العربية من باب التوطئة والتهييد

ثانياً — اللغات السامية وأصل العربية

لقد وجد تشابه كبير في لغات الأمم التي سكنت في القديم غرب آسية من العراق والشام وجزيرة العرب فانها فوق اشتغالها على حروف تكاد تكون خاصة بها كالحاء والصاد والطاء والميم وغيرها قد جاءت كثيرة الاشتراك أو شديدة التشابه في الالفاظ والمعاني وفي كثير من الخواص كمميزات التأنيث وكيفية اتصال الضمائر بجميع أنواع الكلمات . ولما كانت تلك الأمم في غالبيتها من أبناء سام وكانت هذه اللغات قاصرة عليهم دون غيرهم الا من خالطوهم كالكنعانيين أبناء كنعان بن حام سكان لبنان ثم لم تعرف خارج تلك الجهات الا منقولة معهم فقد سميت هذه اللغات بالسامية وقسمت في أصولها إلى أرومتين عظيمتين .

الأولى : وهي أقدمها شأننا الكنعانية وكان أولى بها أن تكون من الحامية كما تقدم لولا أنها جاءت شديدة التشابه بالفروع السامية لطول ما أقام أهلها مع الساميين وأشهر فروعها (١) الفينيقية لغة أهل لبنان قديماً وقد بادت (٢) العبرية وقد دخلها كثير من فروع الآرامية الآتية فصار يقال العبرية القديمة والعبرية الحديثة وقد بادت القديمة وبقيت الحديثة

الثانية وهي أعظمها الآرامية الأولى نسبة إلى إرم بن سام وأشهر فروعها (١) الآشورية لغة أهل نينوى وقد بادت (٢) البابلية لغة أهل بابل وقد تغيرت إلى الكلدانية ومن الكلدانية تفرعت السريانية والآرامية الثانية ومكثتا إلى مجيء الاسلام ثم بادت الآرامية قطعاً والسريانية إلا على ألسنة القليل (٣) العربية القديمة وهي لغة العرب البائدة ذات الاتصال القريب بأرم وقد عاصرت قدامى أخواتها وقبيل أن يبسدها أهلها انتقلت إلى اليمن وعرفت بها على

أيام يعرب بن قحطان والكنها تأثرت باليمنية القديمة وتأثرت اليمنية بها
فنشأت العربية الوسطى أو القحطانية التي تمثلت بعد في السبئية والحميرية وبقيت
حتى غلبت عليها العربية الحديثة وهي العدنانية أو المضرية وإن كانت تأثرت
بالسبئية والحميرية جنوبا وبالعبرية والسريانية شمالا ثم استمرت في طريق
النضوج والتهذيب إلى أن قاربت فيه الذروة قبيل الاسلام فنزل بها القرآن
الكريم فأتمه عليها ونشرها على لسان من آمن به في مشارق الارض ومغاربها
من ذاك يتبين أن اللغة العربية أصل من أصول الارمية القديمة التي هي
مذشأ اللغات السامية جميعا ما عدا الكنعانية أو بغير استثناء لما سبق من أن
الكنعانية ليست أصلا فيها بل كثيرة الشبه بها ثم مع فضل اللغات السامية
على غيرها كما يقول علماء اللغات بكثرة الكلمات وتنوع الاساليب واطراد
القياس ووضوح مخارج الحروف وعدوبة المنطق قد فاقت العربية أخواتها
جميعا في ذلك وفي غيره حتى رأى كثير من العلماء قديمين وحديثين شرقيين
وغربيين أنها أصل اللغات السامية جميعا بما عقده من موازات بينها وبين
السريانية والعبرية وهما أغنى الساميات بعدها إذ اتضح من هذه الموازات
أن العربية أصل لها بدليل أن الكلمات المشتملة على حرف الضاد وهو خاص
بالعربية دونهما تنقل اليهما يجعل الضاد صادًا في العبرية وعينا في السريانية
باطراد ولو كانت العربية ناقله عنهما لما كان ثمة داع لجعل هذين الحرفين
ضادا لوجودها فيها وبدليل فقدان كثير من أصول الكلم فيهما مع وجوده
في العربية هذا إلى ما هو ثابت للعربية من مميزات أوجدها التقدم الفطري في
بقائها بجزيرتها قرونا طويلة بهيئة عن الاختلاط وأمنة شر المغيرين حتى
اكتسبت بذلك مناعة جعلتها أقوى على مدافعة الغير وأبقى على مطاولة الزمن.

ثالثا — طرق نمو العربية وخصائصها

نشأت اللغة العربية على النظام الذي أسلفناه في نشأة اللغات فتكونت النواة الاولى من ألفاظها بعامل المحاكاة والارتجال ولا بأس من ذكر شيء عنهما الآن حيث يساق الكلام خالصا لطرق نموها وخصائصها

١ — المحاكاة

فألفاظ المحاكاة أنواع : منها ما حوكت به أصوات الحيوان كمواء الكلب ومواء الهر وخوار العجل مما أصله الحرف الاول محركا بحركة . وكرغاء الابل وأصله الحرفان الاولان وكنيب التيس وأصله الباء مكررة وكصرب الجندب وأصله الحرفان الاولان مكررين

ومنها ما حوكت به أصوات الانسان الفطرية كالشهيق والزفير والشخير والزحير مما أصله الحرف الثانى وكالتأوه وأصله الهمزة والهاء والتأفف وأصله الفاء مكرره والقهقهة وأصلها القاء والهاء مكررتين

ومنها ما حوكت أصوات الطبيعة وتفاعلهما كخريز الماء وحفيف الاشجار وهبوب الريح وكالدق والصك والهد والقط والمص والرش ونحو ذلك مما بين حروفه وصوته تشابه

وقد نلاحظ المحاكاة في وضع أسماء لبعض الذوات من صوتها كالألف والهم وأصلهما الفاء وكالحلق والحلقوم والخنجرة وأصلها الخاء

ومن هذه الاسماء الصوتية نشأت أفعال إما بالمد كخار العجل أو بالتكرير كخريز الماء ونحوها مما جعل التولد والازدياد عن طريق الصوت فـهـاـلا
مستتمرا .

ب — الارتجال

والألفاظ المرتجلة هي أكثر ألفاظ اللغة فقد خص الله الإنسان بالنطق والفكر فاقتدر بهما على وضع ألفاظ كان ينطق بها كلما دعاه داعي التفهم أو التفهم ومن العسف أن ننكر عليه الارتجال كما فعل بعض المكابرين ونحن نرى الأطفال ولما يبلغ فيهم النطق والفكر مبالغهما في الكبار كثيرا ما يرتجلون كلمات مركبة من بعض حروف يدلون بها على مرادهم ويستعينون في تفهمها ببعض الاشارات وقد لا يستعينون ومع ذلك تفهم عنهم بالتكرير فمن الطبيعي والمعقول أن يكون الكبار أقدر منهم على الارتجال ولا سيما إذا ساعدتهم عليه استخدام عوامل النمو على ما سيأتي بيانه :

عوامل النمو

هي الابدال والقلب والنحت والاشتقاق والتجوز

الابدال

هو جعل حرف مكان آخر يقرب منه في اللفظ كأن يكونا من مخرج واحد أو مخرجين متقاربين وقد تناول كل الحروف تقريبا ولكن أشهر أنواعه ما يأتي : —

١ — تبادل الهمزة والهاء مثل أيهات في هيهات وهيا في أيا من قول

الراجز : —

فانصرفت وهي حصان مغضبه ورفعت من صوتها هياأبه

كل فتاة بأبيها معجبه

٢ — تبادل الهمزة والياء مثل ألملم في يللم ويللم في ألملى

٣ — تبادل الهمزة والواو عند الحجازيين كوكد في أكد وإشاح

في وشاح

٤ — تبادل الهمزة والعين عند قيس مثل

أعن تو سمت من خرقاء منزلة ماء الصبابة من عينيك مسجوم
والأصل أن ومثل

أرني جوادا مات هزلا لا^أني أرى ماترين أو بخيلا فخلدا
والأصل لعلي وابدال الهمزة عينا هو عنمة قيس

٥ - تبادل التاء والطاء كسلطان في سلطان من قول الشاعر
فتى زاده السلطان في المدح رغبة إذا غير السلطان كل خليل
وطريق في تريق

٦ - تبادل التاء والذال مثل سبنتي في سبندى ومد في مت بمعنى اتصل
٧ - تبادل الحاء والعين عند هذيل مثل ضبع في ضبع وبحر في بحر
ويسمى الفحفة

٨ - تبادل الحاء والهاء مثل تفيحق في تفيحق وكده في كدح
٩ - تبادل الضاد والطاء كقول أعرابي لسيدنا عمر «أيظحي بضبي» يريد
أيضحي بضبي

١٠ - تبادل النون واللام مثل أصيلان في أصيلا وهتل في هتن
١١ - تبادل النون والميم مثل غين في غيم وامتعق في انتقع
١٢ - تبادل الميم والباء عند مازن كبكة في مكة وامني في ابني
١٣ - ابدال التاء كافا مثل «يابن الزبير طالما عصيكا» يريد عصيت
١٤ - ابدال الضاد لاما مثل

لما رأى أن لادعة ولا شبع مال إلى أرطاة حقف فالطجع
يريد فاضطجع

١٥ - ابدال القاف كافا عند حمير مثل يارفيك في يارفيق
١٦ - ابدال لام التعريف عندهم ميماء مثل اسفر في اسفر ويسمى الطمطمانيه

- ١٧ - ابدال السين تاء عندهم مثل الناء في الناس ويسمى الوثم
١٨ - ابدال الكاف شينا عندهم مثل منش في منك ويسمى الشنشنة
١٩ - ابدال العين الساكنة قبل الطاء نونا عند أسد مثل أنط في أعط
ويسمى الاستنطاء

- ٢٠ - ابدال الياء المشددة جيم في الوقف عند قضاعة ويسمى المعجعة مثل
خالى عويف وأبو عالج المطعمان اللحم بالعشج
يريد «على والعشى» وقد يحدث هذا الابدال من غير تشديد وفي غير الوقف
٢١ - ابدال كاف المؤنث شينا في الوقف عند تميم وتسمى الكشكشة مثل
قرى في بيتش أى في بيتك وقد يكون هذا الابدال في غير الوقف مثل بش
تقتدى النساء أى بك كما قد تضاف الشين الى الكاف من غير ابدال مثل قرى
في بيتكش

- ٢٢ - ابدال كاف المذكر سينا في الوقف عند بكر وتسمى الكسكة
مثل احمد ريس أى ربك وقد يكون هذا الابدال في غير الوقف مثل ريس
احمد أى ربك كما قد تضاف السين الى الكاف من غير ابدال مثل احمد ريس
وباب الابدال واسع المدى كثير المثل ولذا كان من أكبر العوامل في
اختلاف اللهجات

القلب

هو تقديم حرف أو تأخيره في الكلمة بحيث تنشأ كلمة أخرى متحدة المعنى
مع الاولى أو مختلفته يسيرا كبعض وبضع وجذب وجبذ ويغلب أن يكون سببه
خطأ أتى من سبق اللسان أو محاكاة لمسموع مع سوء الاستماع ثم تكرر استعماله
فتثبت

النحت

صوغ كلمة من بعض حروف كائتين أو أكثر إيجازاً في النطق كبسمل
وحمدل وسبعل وحوقل وطابق ودمهر وعيشى وعيشى وعيشى وعيشى
إنه قد يأتي في الكلمة فتصفو على حرف واحد وأن من ذلك حروف المضارعة
فالهمزة من أنا والنون من نحن والتاء من أنت والياء من هي .

الاشتقاق

أخذ كلمة من أخرى مع تقارب في المعنى واختلاف في اللفظ وهو باب
واسع النطاق كثير التقاسيم وقد تكفل به علم الصرف

التجوز

استعمال اللفظ أو التركيب في غير ما وضع له لهلاقة هي المشابهة أو غيرها
وبقرينة مائة أو غير مائة وهو باب حافل وضع من أجله علم البيان

الترادف

وهذا عامل سادس هو الترادف ويكون بأن يوضع للمعنى الواحد أكثر من
لفظ وهو شائع في العربية وقد تصل كثرته إلى مئات الالفاظ ومنشؤه
اختلاف الخواطر في وضع الاسماء أو في التعبير عن المعاني على أن بعض علماء
اللغة يقول انه لا بد أن كانت هناك فروق دقيقة بين المترادفات تنوسيت على
تطاول الزمن ولكن في هذا القول بعض مغالاة واهل القصد في التعليل أن يقال
إن الترادف لم يظهر إلا حين اشتد الاختلاط وعرف كل قبيل ما كان يستعمله
الآخرون فتبادلوا يوم هذا الاستعمال

الخصائص

تلك هي طرق نمو اللغة وزيادتها أما خصائصها فمع صعوبة إثبات شيء من الخصائص
للغة ما على إطلاق اللفظ يمكن أن نسند إلى العربية من الميزات ما إذا لم يكن

خاصة من خواصها لا يعدم أن يكون فيها أفضل منه في غيرها وأهمه
١ — الأعراب ولا يكاد يشارك العربية فيه من اللغات الا القليل كالحديثة
على ضعف وقلة تصريف بينا هو في العربية كثير التنويع والتفريع وبه يكون
التمييز بين المعاني والوقوف على مرامي المتكلمين فوجوده في العربية دليل على
قدم أهلها في البيان وألمعيتهم في تفهم الأغراض فان اختلاف حركة فيه قد
يقلب المعنى ويغير من نوع الكلمة

روي أن رجلا من الخوارج قال وخليفتهم إذ ذاك شبيب
فمنا يزيد والبطين وقعب ومنا أمير المؤمنين شبيب
بضم الراء فامر عبد الملك بطلبه ولما وقف بين يديه قال له أنت القائن وروي
البيت كما ذكر فقال لم أقل هكذا إنما قلت « ومنا أمير المؤمنين شبيب » وفتح
الراء فضحك عبد الملك وخلي سبيله لتخلصه بفطنته
وروي أيضا أن الوليد بن عبد الملك وكان لحانة قال لا أحد أشرف قریش
من ختنك بفتح النون وهو يريد الضم فقال فلان اليهودي فقال له ما تقول ويحك
قال لعلمت تسأل عن ختنى يا أمير المؤمنين هو فلان

٢ — عدم الابتداء بالساكن وعدم جواز التقاء الساكنين الا بضموا بطن
تجعله على قلته غير ثقیل وهذا خاص بالعربية وقد يجتمع في غيرها من اللغات
الآخرى أكثر من ساكنين

٣ — الدقة في استعمال الالفاظ وتتضح في العربية في أمرين أحدهما
تفصيل الالفاظ بقدر تفصيل المعاني حتى ليكاد يوجد لكل جزئية من المعنى
الواحد كلمة خاصة بها وهذا كثير فصلته مخصصات اللغة في أجزاء الانسان
والحيوان والطير والنبات والجماد والزمان وغيرها مما هو موطن التسمية ثم في
تفرع الافعال للشيء الواحد فالقتل مثلا للمعنى الكلى وتحتة من الالفاظ ما يبين

كافة أنواعه . والثاني عدم العدول عن اللفظ المناسب للمعنى ما وجدت تلك المناسبة فان ملاحظة المناسبة ان هي الا من تلك الدقة وهذا مستفيض في اللغة قد تناول الالفاظ الموضوعية بالمحاكاة كلها وأتى على كثير من المرتجلة عن طرق النمو السابقة وما نظن لكثير من اللغات مثل هذا

٤ - الدقة في استعمال التراكيب ومن أجل هذه الدقة الكلامية وعليها قامت علوم البلاغة الثلاثة بنصوصها الضافية وأبحاثها الوافية التي يبعد أن تضارع بمثلها في غير العربية

٥ - الإيجاز وليست هناك أمة تبارى العرب فيه فقد بلغ من إيجازها أن كان الكلام على غنائها في المعنى يقع في الجملة والجملة. وما الامثال والحكم وجوامع الحكم الا آيات شاهدة على هذا ثم لعل في اكثار العرب من استعمال الالفاظ والاشارة والتعريض والكناية واللحن الصارف الى غير المتبادر أحيانا ما يرينا مبلغ مقدرتها على الإيجاز ومهارتها فيه

٦ - خضوع عوامل النمو السابقة في جملتها لكثير من الاقيسة والضوابط مما لا يوجد بعضه في غيرها ألبته أو يوجد بقدر ضيق يجعل الشاذ أكثر من المقيس .

٧ - هذا وبالعربية خاصة قيل إنها لا تعتبر من آيات الكمال والمدح بل من بقايا النقص والعيب وهي الاشتراك ويكون بأن يطلق اللفظ الواحد على أكثر من معنى وبخاصة اذا كان في بعض معانيه التضاد مما يؤدي الى التعمية والابهام إذ هذا يتنافى مع الغرض المفروض في اللغة من أنها وسيلة الى الايضاح والبيان ويغلب أن تكون الالفاظ المشتركة من بقايا اللغة التي لم يأت عليها الزمن بعوامل الاختصاص ولكن مما يهون الامر فيها بالعربية وجود كثير من الكلمات المختصة ازاء اللفظ المشترك فان في ذلك غناء للقائلين وفرارا مما فيه تلبيس على السامعين هذا الى ما قد يفرض به المقام اذا استعمل اللفظ المشترك من قرائن تتطلب المعنى المراد دون ليس ولا ابهام على ان الابهام قد يقصد في بعض الاحيان .

رابعاً — اختلاف لهجاتها وعوامل تهذيبها

عرف مما سبق بيانه في اللغات السامية وأصل العربية أن العربية اجتازت ثلاثة أطوار أول هو نشوءها على لسان العرب البائدة الذين هم أقرب الشعوب العربية إلى سام لانهم إلى ابنه إرم ينسبون وطور ثان هو ما كان من اختلاط هذا الشعب الأول باليمنيين القدماء اختلاطاً جعل لغة كل فريق تؤثر في لغة الفريق الآخر ولكن يظهر أن الغلبة كانت للغة العرب البائدة على اليمنية القديمة فصارت أوضع منها في العربية الثانية لما هو متفق عليه من أن اليمنيين تعربوا على عهد يعرب بن قحطان ومن ثم عرفوا بالعرب المتعربة ثم كان ما كان من انقراض العرب البائدة وبقاء العربية ممثلة على لسان القحطانيين وحدهم أما الطور الثالث فهو ما كان من نشوء شعب عربي جديد حيث نزل إبراهيم وادى مكة على مقربة من جرحهم الثانية وهي قحطانية فرفع قواعد البيت ثم عاد تاركاً هناك ابنه اسماعيل الذي أصبح في تلك القبيلة فكان له بنون نشئوا يتكلمون لغة جديدة تأثروا فيها بلغة أبيهم وبلغة هؤلاء القحطانيين حتى إذا ما انحدر التناسل إلى عدنان ثم ظهور شعب ثان هو الشعب العدناني الذي عرف باسم العرب المستعربة وبذلك كانت هناك ائتان قحطانية في الجنوب وعدنانية في الشمال ولكن مهما قلنا في التفرقة بين اللغتين فلن تبلغ التفرقة جعل كل واحدة منهما تامة الاستقلال عن الأخرى لأن تكوين الأخيرة يأبى هذا الاستقلال كما يابى إلا أن تكون الأولى أغلب عليها عملاً بتغلب الكثير على القليل وكذلك مهما قلنا في التقارب بينهما فإن يبلغ التقارب درجة الاتحاد وبخاصة إذا علمنا أن معظم الشعوب القحطانية حين نشوء العدنانية كانوا يعيدون في الجنوب عن الاختلاط بالعدنانية في الشمال وعلى هذا الأساس سيكون قولنا في اختلاف

لهجات العربية وعوامل تهذيبها وكان ظاهر العنونة يقتضى أن نقدم القول فى اختلاف اللهجات عليه فى عوامل التهذيب لولا أن ما سندسوقه بعد من اختلاف فى اللهجات هو بقايا ما مكث منها على الرغم من تلك العوامل حتى جاء الاسلام وفى هذا ما يدعو الى عكس الترتيب

عوامل التهذيب

يقصد بالتهذيب الذى حدث فى اللغة الى أمرين أحدهما السير بها فى طريق التحسين والترقى بمجهود كل قبيل على حدة وبقطع النظر عن أن يتقرب فى ذلك الى لهجات غيره من القبائل الاخرى والثانى العمل على تقريب تلك اللهجات بعضها من بعض تقريبا ينتهى كما انتهى بما هو أشبه بالتوحيد ولكل من هذين الأمرين عوامل هى المجتمعات الخاصة للاول والعامة للثانى على أنه من الطبيعى أن تكون المجتمعات العامة مع اختصاصها بالتهذيب من ناحية التوحيد عاملة عليه أيضا من الناحية الاخرى فما هى اذن تلك المجتمعات

١ - المجتمعات الخاصة

كان للعرب مجتمعات خاصة كثيرة دفعتهم اليها أحوالهم وشهدت بها الفاظهم وكلها كان يستدعى منهم أن يقولوا ويتكلموا محاولين فى ذلك تجويد قوْلهم وتحسين كلامهم ما أمدتهم القرينة وطاوعهم البيان وفى هذا من العود على اللغة بالتقدم والترقى ما نريد أن نقول

فمن المجتمعات ما كان للمذاكرة والمشاورة فى تدارك حرب أو غارة وكان يقع غالبا فى قبة ينصبها من تكفل بأمرهم فيجتمع فيها أهل الحل والعقد منهم ثم تدور أقداح القول ويجرى النقاش فيه تأييدا أو نقضا حتى يصلوا الى رأى يستقرون عليه ويعزمون العمل به ومن هنا نشأ ما يذكرونه عن رأى البيت والاقبال عليه والرأى النظير والانصراف عنه

ومنها ما كان للحكومة والفصل في الدعاوى والمنازعات فيستعد كل فريق
للدلاء برأيه والدفاع عن وجهة نظره أمام حكم يرضونه ويدعون لحكمه وقد
كان هؤلاء الحكم يختارون ممن عرفوا بمحاصرة الرأي وحضور البديهة وقوة
البيات حتى يكونوا قديرين على مناقشة الخصوم واستجلاء الحقيقة من
تلك المعجزة الكلامية التي يريد أن يخرج منها كل طرف في الخصومة فائزا على
خصمه منصورا

ومنها ما كان للاتعاظ والاعتبار فما خلا قبيل من ذى بصيرة نافذة ونفس
طاهرة يجتمعون اليه بعض أيامهم لاستماع ما فيه ترغيب أو ترهيب كما تروحي
عقائدهم وتنطق فطرتهم ومن هذا النوع ما كان من اجتماع قريش حول كعب
ابن لؤى كل يوم عروبة يعظمهم ويذكركمهم ويقال إنه لذلك سمي يوم الجمعة وإن ذلك
أيضا واسبقه يومي السبت لليهود والأتحد للنصارى اختاره الاسلام بعد جعل
صلاة الجمعة فيه

ومنها ما كان للتحالف والتعاقد على الدخول في أمر أو الكف عن أمر مما
يتطلب من ذوي المكانة والزعامة قبل الدعوة اليه قولا وبيانا ومن
السامعين مدافعة وحوارا حتى تستقر الاشياء في أنصبتها وتطمئن النفوس الى
الايمان بها. ومن ذلك حلف المطيبين حين أراد بنو عبد مناف أن يأخذوا من بنى
عمهم عبد الدار ما أعطاهم إياه أبوهما قصي بن كلاب من أمور البيت فأبوا
عليهم وكاد يقع الشر لولا هذا الحلف الذى قسم الامور بينهما وانما سمي بذلك
لانهم غمسوا أيديهم حين عقدوه في طيب مسحوا به الكعبة وتوثقوا
وكثيرا ما كان يقع التحالف اذا تسافه أفراد القبيلة تسافها يقتحم الحدد ويتهمجهم
على العرف فيهب أشرافها يتعاقدون على التآمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما

فعلت قريش في حلف الفضول على يدى العباس بن عبد المطلب وسفيان بن حرب
ورسول الله يومئذ ابن خمس عشرة سنة وهو الحلف الذى قال فيه صلى الله عليه
وسلم « لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به - ثم النعم
ولو دعى اليه فى الاسلام لا جبت »

ومنها ما كان اذا خلوا من تلك المشاغل لمحض الانس وترويح النفس بذكر
ما سلف من الحروب والوقائع وقص ما دضى من السير والاخبار وتناشد ما
حلا من الرجز والقريض الى غير ذلك مما تنشرح له الصدور وتنتعش به الافئدة
وكان هذا النوع من المجتمعات لا يقع غالبا الا ليلا ولذا سمي حديثه بالمسامرة
والسمر وهما فى اللغة حديث الليل وكانت عادتهم فيه أن يتحلقوا وفى وسطهم
من ينتهى اليه أمرهم وأحيانا كان يتحسس المتكلم اذا أراد ذكر قصص غريب
فيمض لا لقائه واقفا كما يفعل الخطيب

هذه هى المجتمعات الخاصة وقد قطعت فى تهذيب اللغة بالمعنى الاول شوطا بعيدا
ولها أسست الاندية ومن أقدمها دار الندوة التى أسسها قصي بن كلاب فكانت
تجتمع اليه فيها قريش للامور السالفة ليلا ونهارا ولهذا سمي بمجمع على أن الاجتماع
بها لم يقتصر على تلك الامور بل تعداها الى غيرها كالاملاك والاعذار فكان
يقع من الكلام ما يلائم الموضع وعو من الخطب ما يناسب المقام

ب — المجتمعات العامة

أما المجتمعات العامة فنعنى بها ما أدى الاجتماع فيها الى الاختلاط بين
قبيلتين أو أكثر أيا كان الدافع الى هذا الاختلاط ونقصد منها أكثر ما نقصد
العمل على التقارب والتوحيد بين لغات القبائل وبخاصة بين يمن ودضر وإن
كانت تؤدى مع هذا الى ما سبق ذكره من الحسن والارتقاء وقبل أن نتكلم
على عوامليها وهما قريش والاسواق لابد لنا من القول بأن العامل الاساسى قبل
هذين كان اختلاط القحطانية بالعدنانية حيث غادرت كثرتها اليمن منذ القديم

لسيل العرم أو للعيش أو لغيرها من أى شىء تشاء فملاّت من الجزيرة العربية وسطها وشمالها وما بعد من أطرافها وبذلك كان تخالط وكان امتزاج ذهبت به الفوارق اللغوية الجسيمة بحكم الطبيعة وعلى توالى الايام ثم كان ماسند كره عن قريش والاسواق فضعفت كل الضعف وزال ما بقى من فارق أو كاد

قريش

« إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مبارك » رفع ابراهيم قواعده وابنه اسماعيل فأقاما أركاناً وأتما بنياه وتقبل الله دعاءهما الذى حكاه سبحانه يقول عنهما « واذيرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم » فكان بيتا محجوجا يقصده العرب من كل مكان قصي ويأتون اليه من كل فج عميق يطوفون به ويقضون مناسكهم فيه ولقد كانت أفئدتهم تهوى اليه استجابة لدعاء نبيه وخليله حيث يقول « ربنا انى أسكنت من ذريتي بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلمهم يشكرون » وما زال هذا البيت محل وفادة لجميع العرب من لدن اسماعيل حتى جاءت قريش فكانوا جبرته الأدين يقيمون حوله ويقومون بسدائنه توفيراً لراحة زائريه وعملا على ارضاء قاصديه يستمعون جميع لهجات العرب اذا دعوا ولبوا أو تضرعوا وتوسلوا وإذا أرادوا أمراً أو قصدوا شيئاً فلا يزالون موسم الحج على طوله وإذا لم يك حج كان اعمار ينقلون إلى لغتهم ما يستحسنون من ألفاظ وعبارات وينقل الوافدون اليهم عنهم إذا قفلوا أكثر مما ينقلون هم فينشرونه فى أرجاء الجزيرة ونواحيها وهكذا دواليك بقيت قريش أداة أخذ وإعطاء تعمل بمجهود جبار على التوحيد والتهذيب حتى تهذبت عبارتها وترقى أسلوبها واتسعت

اقتضا وصارت أرفى بتأدية المراد من غيرها وأصبحت للحجة مكة وهي حاضرة العرب وبلدة قريش أوضح اللهجات بها نأوا عندها أسلوبا وأخفها منطقا وأوسعها فهما شأن اللهجات في حواضر المدن وقواعد الممالك تجدها من الخلاوة والطلاوة مالا تجد غيرها من سائر مدنها وجميع قراها ثم لم تك قريش محل وفادة فحسب بل كانت بحكم عملها التجارى لا تزال تقطع بلاد العرب برحلة الشتاء وال الصيف الى اليمن جنوبا والشام شمالا فتغزو بهاتين الرحلتين وبغيرها الى غير هذين الاقليمين ما تصادفه من خلاف غزوا يكسر من حدته ويقل من غربه فاذا هو مستكين ضعيف يتوارى ثم لا يلبث أن يزول

الأسواق

جمع سوق وهي مجتمع الناس أصلا للبيع والشراء وكانت للعرب أسواق عامة يبدؤون التنقل اليها من أوائل سنتهم بالشمال ثم لا يزالون يسرون اليها شرقا فجنوبا حتى ينتهوا من سوق صنعاء بانتها رمضان فتعمد جميع القبائل الى الاستعداد خلال شوال للرحلة الى سوق عكاظ فيعمرونها من أول القعدة الى عشرين منه ثم يغادرونها الى مجنة قرب مكة بقية القعدة ومن مجنة يذهبون أول الحجة الى ذى المجاز بجانب عرفة لا بمنى كما قد يقال ومنها يكون المنصرف الى الموقف الاعظم فى عرفات وبالصدور منه ينفرط عقد الناس

ولما كانت هذه الاسواق الثلاث قريبة المكان من مكة والزمن من موسم الحج كانت أعظم الاسواق جمعا لقبائل العرب المتباعدة مقاما ونسبا وكل مجتمع كهذا لا يخلو والناس يزحم بعضهم بعضا من بادرة غضب أو سابقة قول وما أسرع تجمع الناس والتفافهم حول المختلفين فيرى كل من المتنازعين حوله من الخلاطاء والبعداء ما يطلاق من لسانه ويشير من انفعاله فيقول ويفخر والجموع مثار الفول والفخر ثم ينصرفان وفي نفس كليهما موطن لم يبلغه فيعود هو

أو أحد عشرته إلى السوق من عامة القبائل وقد أعد قولاً يرد به على منازعه ويستكمل به نقصه وهكذا بدأ الاتجار بالكلام في الأسواق وما زال آخذاً في الزدياد حتى كان خير بضاعة أو هو البضاعة النافقة في هذه الأسواق وأخصها عكاظ فقد اعتادت القبائل أن تعد للقول بها عدته وللنخار آيته فيستمع المحكمون ويقدمون أو يؤخرون وفي هذا من الباعث على الروية في القول والتخير للنظم مارفع من صناعة الكلام وجعل التروىء من عادة الكثيرين وقد كانوا من قبل ينطقون دون سبق روية أو تفكير وشتان ما بين البديهة وإن وافقت الصواب وسداد البصيرة وهدى التفكير

وإذ كان الشعراء والخطباء وكل ذى كلام يريد له سعة فهم وكثرة ذبوع ولا بد أن يريد يرون لغة قريش أو في اللغات بهذا فقد انشأوا إليها جميعاً يستوحدون فصاحتها وبيانها ويستمدون قوتها وسلطانها حتى غطت على جميع اللهجات فأصبحت العلم الذى بنوره يهتدى والامام الذى بقوله يقتدى عرف العرب لها ذلك واعتقدوه فى المحاكاة والتقليد فأخذوا يتقربون بلغاتهم إليها وكانت الأسواق من أقوى العوامل على هذا التقريب حتى قارب توحيد اللهجات التمام واستعد العرب لفهم القرآن الكريم الذى نزل بلغة قريش ولمعرفة مواطن الإعجاز فيه فلم يبق بعد نزوله إلا القليل من اللهجات

اختلاف اللهجات

ليس أمامنا من قول فى اختلاف اللهجات بعد الذى قدمناه من أن عوامل التهذيب قد تغلغلت فى اللغة فنقتها وهدنتها ووحدتها فى مجموعها وقربت بها وجعلت لغة قريش مهيمنة للجميع يمتلكون زمامها وينضلون القول بها على غيرها سوى أن نذكر بعض هذه اللهجات لتضم إلى ما قدمناه منها فى الإبدال

١ - لليمن

١ - ثلاثة بهراء . وهى كسر حروف المضارعة إلا همزة إخال فانها عامة

الكسر لدى الجميع

٢ ، ٣ - وهم كلب ووكها . والاول كسر هاء الغائب دون أن يسبقها

كسر ولا ياء ساكنة . والثانى كسر كاف المخاطب بعد الكسرة

والياء الساكنة وقبل ميم الجماعة

٤ ، ٥ - استعمال ذو وفروعها بدل الذى وفروعها عند طيء . وفتح عين

الناقص المكسورة عندهم أيضا

٦ - حذف نون اللذين واللتين رفعا عند بلحارث من مذحج

٧ - اعراب المثني بالالف عند بطن من كلب يدعى ربيعة

٨ - حذف بعض الحروف دون علة عند أزد الشحر وعمان مثل مشالله

فى ما شالله وتسمى اللخاينة

ب - لمضر

١ ، ٢ - ضم هاء الغائب بعد كسر أو ياء ساكنة عند الحجازيين . والزامهم

ما النافية عمل ليس

٣ ، ٤ - عدم اعمال ما عمل ليس مطلقا عند تميم . وقصر أولاء الاشارية

ومد إلى الموصولة عندهم أيضا

٥ - اختلاس هاء الغائب أو تسكينها بعد حركة عند بنى كلاب وبنى عقيل

٦ - اجراء الذين مجرى جمع المذكر رفعا عند بنى عقيل وهذيل

٧ - قلب ألف المقصور ياء إذا أضيف إلى ياء المتكلم مع ادغامها فيها

عند هذيل

ج - لهجات غير مقيدة ييمن أو مضر

١- اعراب الاسماء الخمسة بالحركات مقدرة على الالف أو ظاهرة على عينها

٢- اعراب المنقوص نصيبا كما عرابه رفعا وجرا

٣- الحاق الضمائر بالفعل على أنها علامات ثنية وجمع

٤- زيادة حروف لين باشباع الحركات في المد

٥- ترقيق المفخم بطريق الامالة من الفتح الى ما بين الفتح والكسر

٦- تسكين بعض المتحرك بدون علة كالعين في معكم

٧- الاختلاف في نوع حركة أحد الساكنين حين التخلص من التقاءهما

٨ - » » التذكير والتأنيث حيث لا يجب أحدهما

٩ - » » الهمز والتسهيل

١٠ - » » الفك والادغام

١١ - » » صيغ جموع التكسير للكلمة الواحدة

هذا ومن اختلاف اللهجات أيضا اختلاف القبائل في معاني الالفاظ اختلافا

نشأ عنه الترادف والاشتراك والتضاد وقد تقدم وجه الرأي فيه

معارف العرب في الجاهلية ومعتقداتهم

ينبغي لمن يتعرض لهذا الموضوع بالكلام أن يصدره بأمرين جديرين
بالعناية هما: —

أولا أن المقصود من كلتي معارف ومعتقدات ليس ما يفهم من كلتي علوم
وأديان بالمعنى الذى يعرفه الناس لان الحياة البدوية الجاهلية تأبى هذا الاطلاق
فما كان علم من غير حضارة ولا كان دين بغير دعوة وكلا الامرين لم يك
موجودا في الجزيرة العربية قبل الاسلام الا في أجزاء قليلة من أطرافها لا
يصح تغليبها على المجموع الكثير ولهذا اختيرت الكلمتان السابقتان في العنونة
له دون أختيهما اللاحقتين

وثانيا أن ما عرف عنه لم يك مرجعه الاثر والحفر أو التدوين القديم كما
هى الحال في بعض التواريخ فان العرب كانت بعيدة اذ ذاك عما تستلزمه هذه
الاشياء من تقدم في الصناعة ومعرفة بالكتابة انما كان مأخوذا مما نطقوا به
في أشعارهم وما قصه القرآن من أحوالهم وهو لا يعدو في المعارف نتيجة
التجربة وفي المعتقدات أثر العادات الا ما أخذوه في النوعين عن غيرهم من
الأمم ذات الحضارة أو الدين أو الاثنيين معا كالروم والفرس واليهود بحكم
المخاطبة والجوار كما سنقصه بعد بالاجمال .

اولا — المعارف

١ — السماء وكائنات الجو

لعل خير معارفهم في الجاهلية عامهم بالسماء وكائنات الجوار تباط ذلك بمعاشهم
من حيث توقف حياتهم على المطر وهدايتهم على النجوم وقد استعانوا على كثير من

هذا العلم بالكلدانيين وهم بقايا كهنة بابل عباد الكواكب ذوي المهارة فيه ويعرفون عند العرب بالصابئة والى هذا يرجع السبب في اشتراك كثير من الفاظه ومصطلحاته بين العربية والكلدانية

وقد عرف العرب الافلاك وهى مدارات السيارات وكثيرا من الكواكب والنجوم وعرفوا السيارات السبعة وهى الشمس والقمر وعطارد والزهرة والمريخ والمشتري وزحل وكذا البروج الاثني عشر وهى ما يقع من الكواكب والنجوم فى سمت مدار الشمس وسموها بأسماء الصور التى تشابهها من بعض الحيوان أو النبات أو الادوات وهى الحمل والثور والجوزاء والسرطان والاسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو والحوت كما عرفوا منازل القمر الثمانية والعشرين وهى الكواكب والنجوم التى تقع فى سمت مداره ويقطع كل منزلة منها فى ثلاث عشرة ليلة وقسموها على الفصول الاربعة الشمسية فجعلوا لكل فصل سبع منازل وهى بالترتيب الشرطان والبطين والثريا والدبران والهقعة والهقعة والذراع للربيع ، النثرة والطرف والجهة والزبرة والصرفة والعواء والسمك الاعزل للمصيف ، الغفر والزبان والاكيل والقلب والشولة والنعام والبلدة للخريف ، سعد الذابح وسعد بلع وسعد السعود وسعد الاخبية والفرغ الاول والفرغ الثانى والريشاء للشتاء .

وهم يسمون هذه المنازل بالانواء والنوء عندهم النجم يسقط تحت الافق الغربى مع الفجر ويطلع رقيه فوق الافق الشرقى من ذلك الوقت ولما كان الذى يهمهم هو المطر وما يتبعه من رياح وحر أو برد قسموا السنة من حيث المطر سبعة فصول سموها بأسمائه وهى بالترتيب البدرى وانواءه ثلاثة تبدأ بالفرغ الاول ويليه الوسطى اربعة أنواء والولى عشرة والغدير

أو المد أربعة والبسرى اثنان وبارح القيظ ثلاثة ثم احراق الهوى وهو اثنان وعلى ترتيبها هذا يبدأ المطر ضعيفا ثم يأخذ في التزايد حتى يبلغ أشده في الولى ثم يعود الى التناقص حتى يكون الجفاف .

٢ - البيطرة والطب

ومن خير معارفهم بعد النجوم البيطرة وهى تطبيب الدواب من ابل و خيل لشدة حاجتهم اليهما وبخاصة الخيل فقد بلغوا درجة كبيرة فى تعرف أمراضها وعوارض هذه الامراض وكيفية معالجتها وساعدتهم على ذلك واسع علمهم بصفتها وطباعتها وعيوبها مما استفاضت بحوثه وأمد الرواة بالتأليف فيه ويغلب أن يكون علم البدو بكثير من ذلك الى الآن موروثا عنهم .

أما طب الانسان فلم يك عندهم فيه شيء ذو بال الا ما كان من الحكى والبقر والكن فى أواخر الجاهلية ظهر فيهم بعض الاطباء كالحارث بن كلدة الذى تعلم الطب فى فارس وزاوله ببلاد العرب وهو صاحب المحاورة الطبية المشهورة مع كسرى وقد سأله فيها عن كثير من قضايا الطب فجاءت إجابته عنها أشبه برسالة طبية ذات قيمة. هذا على أن جهل العرب بالطب لم يمنعهم أن يعرفوا كثيرا من أسماء العلل وسماتها والامراض وعوارضها كما تدل على ذلك ألفاظهم الموضوعة فى هذا الباب

٣ - التاريخ والانساب

لم يك عندهم شيء ذو نظام من علم التاريخ انما كانت لديهم أخبار مقتضية متوارثة وقفوا عليها بمجاورتهم للفرس والروم ومخالطتهم لليهود وبما أسس فى أطراف جزيرتهم من ملك وبعث هناك من أنبياء وبالرغم من أنهم بكروا فى وضع شهورهم القمرية وفى علمهم بالسنة الشمسية لم يستخدموا التاريخ بالسنين كما فعلت الأمم حولهم مكتفين بقواهم للزمن القديم عادى وللاقدم

منه زمن الفطوح ومستغلين عظام الحوادث للتأريخ وكلما جدت حادثة عفت
على سابقتها وهكذا بقوا حتى جاء الاسلام .

ويعتد ارضطرابهم في التاريخ كانت دقتهم في الانساب فقد كانوا يلزمون
بها الماما لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وكان أعلى النسب عندهم الشعب
ومنهم تذهب القبائل ومن القبيلة تكون العائر فالبطون فالأنحاذ وليس بعد
الفخذ إلا الفصيلة . ولقد كان فيهم نسابون تعيا الدفاتر ولا يعيرون وتضل الكتب
ولا يضلون ساقهم الى ذلك حرصهم على سلامة أنسابهم ونقاء أحسابهم
لحاجتهم الى النسب في المقاتلة والمناصرة والى الحسب في المفاخرة والمنافرة مع
شدة طلبهم للثأر وعدم التواني في أخذه ممن هو محله أو هو منه قريب

٤ - القيافة والعيافة

القيافة أصلا الاهتداء بآثار الاقدام على أربابها غير أنهم توسعوا فيها
فجعلوا منها الاستدلال بهيئة الانسان وأعضائه على نسبه وتسمى الاولى قيافة
الآثر والثانية قيافة البشر وقد كانوا في الاولى يميزون بين أثر الرجل والمرأة
والشيخ والشاب والبصير والاعمى والاحمق والكيس وكذلك كانوا يفعلون
في الحيوان . وكانوا في الثانية ينظرون عدة أشخاص مجهولي النسب لهم فيلحقون
كلا برهطه وعشيرته فاذا كانوا من رهط واحد ألحقوا الابن بأبيه والأخ
بأخيه والقريب بقريبه وقد اشتهرت بهذا النوع قريش وبالنوع الاول بنو مدلج
وهم بطن من كنانة كما اشتهر من غيرها في النوعين أفراد كثيرون . وكلاهما
ضرب من الفراسة بقوة الحدس وصدق الخيال أوجدته في المستعدين منهم
حاجتهم الى تعرف الآثار وحقيقة الانساب والحاجة كما يقولون تفتق الحيلة
بل هي أم الاختراع وان المطلع على ما روى من هذا عنهم آيناله الدهش الكبير .
أما العيافة فأصلها الاستدلال بأسماء الطيور وسقوطها وارتفاعها على ما يتفاعل

به أو يتشاهم منه ولا يكتنهم توسعوا فيها أيضا حتى تعدت الطير إلى غيره من حيوان ونبات وجماد وتعدت ما تقدم من الاسماء والسقوط والارتفاع إلى لأصوات والحركات وسائر الاحوال والصفات. وهى كالقيافة ضرب من الفراسة بقوة الحدس وصدق الخيال وقد اشتهرت بها قبائل أخصهم بنو لطب وهم بطن من الازد وأفراد آخرون. وكان من عادتهم فى عيافة الطير أن يزجروا على السائح ريتير كوا به وهو ما أراك المياسره فأمكن الصائد منه ويكرهوا البارح وويتشاهموا منه وهو ما أراك الميامنه فلم يمكن الصائد منه وهذا من زجر الطير سقوطا وارتفاعا. وكثيرا ما كانوا يزجرون بالاسماء فيجعلون المدهد هدى وهداية أو يأخذونه من الهد والالتلاف كما يأخذون الحمام من حم اللقاء أى قرب أو من الحمام وهو الموت ويجعلون العقاب عقى خيرا وعقى شرا وكذلك فى سائر الطير إلا الغراب فانهم لا يخرجون فيه عن التطير والتشاؤم فيجعلونه من الاغتراب ويسمونه غراب البين كما يسمونه حاتما لانه يحتم عليهم بالفراق والاعور تطيرا عليه إذ كان أصح الطير بصرا ولعل ذلك أتاه من تعوده الوقوع فى مواضع الدور يتلمس إذا بان أهلها للنجعة وبعضهم كن يضم اليه فى الرحلة والنوى التطير بالابل لانها المنفرقة للالاف ولكن ذلك لم يك بالكثير المقبول إذ أنها من جانب آخر آلة الوصلة واللقاء

• — العرافة والكهانة

العرافة هى القضاء بالغيب وكذلك الكهانة لا فارق بينهما غير أن من الناس من قصر العرافة على تعرف ما خفى من حوادث الماضى وجعل الكهانة للتكهن بما عسى أن يكون فى المستقبل ولكن لم نجد أثرا بينا يسمح بهذا التخصيص وكل ما يمكن أن يعد فاصلا بين النوعين هو أن العراف كان دائما أقل من الكاهن وكان يستخدم خبرته غالبا فى معالجة بعض الامراض ولهذا كان

مقصد المرضى وذوي الاسقام يؤيد ذلك ماورد من أشعار ومن أشهر العرافين
بالتطبيب والغالب عليه التطبيب الروحاني رباح بن عجلة بالجمامة والاذى السعدى
بنجد . أما الكاهن فكان يفرع اليه في تعرف الحوادث ويقصد في شارة
والخصوصة للقضاء فيها بالحق من إدراك غيبه وكان من أشهر الكهنة في العهد
الجاهلى سطيح بن مازن الغساني وشق بن أنمار النزرى وسواد بن قارب
الدوسى والكتب الادبية والتاريخية ملأى بحوادثهم وحكاياتهم . هذا .

ويعمل العلماء الآن لحوادث الكهانة التى لاشك فى صدق بعضها لدى
العرب وغيرهم من الامم القديمة فى مصر واليونان والرومان والهند والصين
بارجاعها إلى ما أثبتته العلم الحديث من السببات المغناطيسى وهو عبارة عن تحدير
يحدث فى الجهاز العصبى الحسى تنفصل على أثره النفس من الجسم فلا تبقى
مرتبطة به إلا ارتباطا خفيفا لانها بهذا الانفصال تعود إلى جانب من حريتها
الاصلية فتبدو منها تلك الادراكات الغريبة التى عجز الماديون عن شرح علمها
والتي نسبتها الاديان فى رأيهم لتقريبها لاذهان الناس إلى الملائكة أو الشياطين
ويقولون لما كان انفصال الروح عن الجسم لا يبلغ منتهاه مهما كانت درجة
السببات إذ نهايته الحققة لا تكون إلا بالموت كان من الحتم أن يبقى شىء من
الرابطة يعكس صفو هذا الانفصال فيتسرب الكذب إلى كثير من مدركات
النائم ومنهم الكهنة والعرافون الذين كانوا يلقون أنفسهم فى السببات لما ثبت
من أن الاستعداد الشخصى فى النائم والمنوم قد يجتمع فى بعض الناس ومن
ثم نهت الشرائع عن الركون إلى الكهنة وكانت العقيدة الحققة أن الله سبحانه
هو وحده المستأثر بعلم الغيوب

كانوا أميين في عموم البدو ومن قرأ أو كتب في حصرهم كان خطه قاصراً
وقراءته غير نافذة ولكن وجوده فيما تحضر من دولهم قديماً باليمن والحيرة
والحجر في لغتهم بكثير من الالفاظ الموضوعية له ولادوات الكتابة ولو لم
يعرفوها الى ما كان لهم فيه من شأن بعد الاسلام ارتكز على الخط الحيري القديم
كل هذا جعلنا لا ندعه دون كلمة عنه تعتبر تاريخية في هذا الموضوع فنقول:
لا خلاف في أن منشأ الخط العربي القديم كان ببلاذ اليمن في الخط المعروف
بالمسند الذي ساد بها على عهد السبئيين والحمرين وهذا المسند يرجع الى الارامى
وهو خط المعينين أقدم الائم الآرامية نزوحاً الى هذه البلاد والارامى مقتبس
من الفينيقي المأخوذ من الخط المصري القديم ولما انتقلت كندة وهى من كهلان
الى شمال الجزيرة العربية انتقل معها المسند فعرف بالكندى ثم بالنبطى نسبة
الى جيل عربى عرفه منها هناك ومن كندة والنبط أخذته أهل الحيرة والانباء
فنسب اليهما وعنه نقله الى مكة بالحجاز حرب بن أمية قبيل الاسلام فتعلمه
عدد من أهلها كان منهم كتاب الوحي بعد على عهد رسول الله وبعد تأسيس الكوفة
على مقربة من الحيرة عرف الخط الحيرى باسم الكوفى ثم أخذ يزداد زخارف
وأشواعاً على توالى الحضارات الإسلامية حتى وصل الى ما نراه الآن

ثانياً — المعتقدات

كان للعرب في جاهليتها معتقدات شتى بعضها يجرى مجرى الشريعة والمذهب
هى الأديان وبعضها يجرى مجرى العرف والعادة هى الأوابد .

١ — الأديان

ففي الأديان كانوا كثيرى المذاهب الى الحد الآتى

١ - عبدة الاصنام وهم الغالية العظمى وعقيدتهم الاقرار للخالق بكل شيء
والكنهم ينكرون البعث وارسال الرسل ويعبدون الاصنام لتقربهم الى الله زلفى
٢ - عبدة الشمس أو القمر أو النجوم وعقيدتهم كهقيدة عباد الاصنام
وكذلك موقفهم في عبادتها فهم يتخذونها قربى الى الله لانها من دلائل
عظمته وباهر آياته .

٣ - عبدة الملائكة طمعا في خيرها والشياطين خوفا من شرها على أنها جند الله
وهم في العقيدة كالسابقين . ومثلهم عبدة الجن على أن فيها الخير والشرير
٤ - عباد النار كالجوس وقد سرى اليهم ذلك من الفرس وبيوت النار عندهم
كبيوت الله عند ذوى الكتاب

٥ - الصابئة وهم عباد الفلك الذين يعظمون بروج الشمس الاثنى عشر
والكواكب السبعة السيارة ويشبتون لها ما يشبهه الموحدون لله وقد سرى
هذا المذهب اليهم من سكان بابل القدماء هذا على أنه قد كان في الصابئة قبل
الاسلام من عدل عن هذا الى دين ابراهيم كما كان فيهم بعده من هو شديد
الميل الى دين المسلمين ولذلك ذكروا في بعض الآيات على أن منهم المؤمنين
٦ - الثنيون وهم القائلون بان الاله اثنان اله خير هو النور واله شر هو الظلمة وأنها
قديمان ثم يشبتون لها من الصفات ما يشبهه المؤمنون لله وهؤلاء هم الزنادقة
٧ - الدهريون ومذهبهم إنكار الخالق والبعث على أن الطبع يحيى والدهر ينفى
٨ - اليهود وكانوا في يثرب واليمن

٩ - النصراني في الشمال من ربيعة وغسان وفي الجنوب في نجران
١٠ - الموحدون وكانوا آحادا يدينون بما تسرب الى العرب من ملة أبيهم
ابراهيم والنحروف منهم قليل .

ب - الأوابد

وكذلك كانت لهم أوابد كثيرة ينزلون على حكمها ويعملون بها وأهمها .
١ - استقسامهم بالأزلام وهي قداح مكتوب على كل اثنين منها الأمر وضده
كسافر أو لا تسافر مثلا فإذا أراد أحدهم شيئا ذهب إلى سادن الوثن
فأخرج له أحدها فعمل بما فيه

٢ - تفاخرهم بالعب الميسر وهو المقامرة بالقداح وعددها عشرة الفذ بنصيب والتوأم
بائنين والضرب أو الرقيب بثلاثة والجلس بأربعة والنافس بخمسة والمسبل
أو المصلح بستة والمعل بسبعة ثم السفيح والمنيح والوغد ولا أنصبة لها
إنما كانت تخرج فتزد تضليلا لذوات النصيب. فكان من عادتهم إذا أرادوا
اللعب أن ينحروا جزورا يقسمونها عشرة أقسام ثم يأخذوا في استخراج
القداح بعد تقسيمها عليهم وكلما خرج قدح أخذ صاحبه نصيبه وعمدوا
إلى التحرك إذا قلت الأنصبة الباقية عن إيفاء أكبر قدح لم يخرج وفي هذه
الحالة يكون الغرم في ثمن ما نحر على ذوى السهام الباقية وهكذا حتى
تنتهي جميع القداح فتنتهي النوبة

٣ - حمايتهم البحيرة ببحر أذنبا أى شقها وهي الناقة تنتج البطن الخامس
وكذلك كانوا يحمون السائبة وهي التى يسيبونها لنذر أو شبهة والوصيلة
وهي أنثى البطن السابع للشاة وإذا كان معها ذكر وصلته بالحماية وكذلك
الحمام وهو الفحل يخرج عشرة أبطن

٤ - إغلاق الظهر وهو جب سنام الفحل إذا بلغت الأبل مائة ليمنع عنها
العين ومثل ذلك التفقئة وهي فقم عينه إذا بلغت ألفا فإذا زادت عنه
كانت التعمية وهي الذهاب بعينه جميعا .

٥ - ضربهم الثور لتشرب البقر على زعم أن الجن تركبه فتخيف البقر فإذا

ضرب ذهبته عنه ومثل ذلك كي السليم من الابل أمام الاجرب ليبراً
٦ - ومن عقائدهم في البيت أن يحتبسوا على قبره ناقة يربطون عنقها الى
ذنبها مع تغطية رأسها فلا تزال كذلك حتى تهلك أو تنجو باعتدال عنقها أو
افتكاك رباطها وكانوا يسمونها البلية ويسمون الغطاء الحشية ومن ذلك
قولهم «رأس البلايا في الحشايا» . وكانوا يزعمون أن القتل اذا قتل
يخرج من رأسه طائر يدعى الهامة فلا تزال تقول « اسقوني اسقوني »
طلباً لثأره حتى يدرك ومن عاداتهم هنا عدم البكاء على القتيل ما لم
يؤخذ بثأره

٧ - ومن عقائدهم في المداواة تعليق الحلي على السليم وتسميده سبع ليال ووضع
منخل على رأس من تصاب شفته بالحلي مع المرور به في الحلي قائلين
«الحلي الحلي» وكذا تعليقهم للصبي سن الثعلب والهررة وكعب الارنب دفعا
للنظرة أو الخطف ورميهم سن الاثقال في عين الشمس لتأني بخير منها
٨ - ومن عاداتهم أيضا وأد البنات للعار والاولاد للفقر وقد شدد الاسلام
النكير عليهما في ذلك

٩ - ومنها ايقاد النيران وأشهرها نار القرى ونار الحلف ونار الهداية ونار
الحرب ونار الفداء وهذه للنساء خاصة

ومنها غير ذلك كثير كوطء المقلاة دم الشريف ليعيش ولدها. وشق الرجل
برقع محبوبته والمرأة رداء حبيبها لكيلا يفسد العشق وكي الاليتين
ليذهب. وذكر الرجل أحب الناس اليه ليذهب خدر رجله. ومسح الطارف
العين المطروفة سبع مرات لتسكن وهكذا مما يضيق المقام عن سرده فضلا
عن شرحه فليرجع اليه في مظانه على أنه سيأتي في تدوين الشعر لاحوال
العرب الاستشهاد على كثير من هذا بعد إن شاء الله

وبعد

فقد آن لنا أن نشرع في الادب الجاهلي بعد الذي ذكرناه بمثابة المقدمات له .
غير أن ما جرى عليه بعض الباحثين في هذا العصر من التشكيك في وصوله
إلينا تشكيكا جعله في نظرهم بعيدا عن الثقة والاطمئنان حملني أن أصدر
القول فيه بكلمة ترد عليهم شكوهم وتبرهن على أنه محل ثقة واعتقاد كما حملني
هذا الاغراب منهم في التفكير طمعا في الاتيان بجديد وان لم يك ذلك الجديد
بالمقبول أن أتبعها للرد عليهم أيضا بكلمة أخرى عن بحث لهم ثان ارتكبوا فيه
مثل هذا الشطط وأشد ذلك زعمهم أن الشعر أسبق الى الوجود من النثر .
فها تان كلمتان جعلتهما في صدر الموضوع وان كانتا من أبحاثه في الصميم .

الادب الجاهلى

اَللّٰنا اَنَّ نَظْمَهُنَّ اِلَيْهِ نَدْرُسُهُ وَنَرْوِيهِ

ان لنا اَنَّ نَظْمَهُنَّ

كانت العرب فى جاهليتها أمة فصاحة وكلام ولسن وبيان لامطعن هنا
لطاعن ولا جدال ساقهم الى ذلك فطرة فطروا عليها من صفاء خاطر وذراية
لسان وحفزهم اليه طبيعة عيش اقتضت منهم أن يتغنوا ويرجزوا ويتناخروا
ويتعاكفوا حتى كان الكلام بضاعتهم النافقة به تعمر أسواقهم ويتناقله عنها
حداؤهم وركبانهم فيدوى فى أرجاء جزيرتهم دوياء تهر به رمالها ويضطرب له
كل ذى حياة يهيش فيها ثم لا يلبث أن تضيق به بجوانبها فاذا هو قد جاوزها
الى الامم الاخرى وقديما كان لكل أمة سمة تعرف بها فى غيرها وسمة العرب
الكلام .

كان طبيعيا اذن أن تقول العرب وأن تكثر من القول وأن يتناول ذلك
عضوى الادب اللتين عليهما نهض من نثر وشعر كل فى الغرض الذى من أجله
كان وله درج ولكل مقام مقال . وكان طبيعيا مع هذا أن يتناقل السامعون كلام
التأئين خلفا عن سلف ابقاء للاغراض التى قيل فيها ومحافضة على المآثر
التي سجلها فاذا ما ضمنا الى هاتين الطبيعتين ميزتين أخريين هما القدرة الفائقة

التي كانت معروفة للعرب على الحفظ واعتزاز كل قبيلة بما زاد حسنها ومفاخرها
ضمننا بها أن تدول مضافا اليهما ما كانوا عليه جميعا من أمة جعلت دقاتهم
وعوسهم ودواوينهم حفظ أقوالهم كان لنا أن نطمئن الى أن هذه المناقلة الكلامية
تبقى ما بقيت هذه العوامل ذات كون وثقة وتأيد حتى يطرأ على العرب ما يغير
هذه النواميس ويطبها على غيرها وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم
ولكن شيئا من ذلك لم يكن حتى جاء الإسلام

جاء الإسلام والجزيرة العربية تدوي دوى النحل قد ضل غيرانه بكل
مأثور من القول اعتز به حافظه ومحرص عليه سادعه الى درجة لم يلهم عنها
الإسلام بحديث الأجل ودهشته المظلمة فاستمروا من بعده طويلا يعقدون
عكاظهم ويسترسلون في مناقرتهم ومناقرتهم وهل كان الإسلام الامتداد لهم
في بابهم ومنازل أياهم من راديتهم وقد جعل آيته الكبرى القرآن الكريم يساجلهم
في الفصاحة ويحاجهم بالبلاغة ثلاثا وعشرين سنة حتى امتلاك عليهم ناصيتها
واستل من أيديهم زمامها فألقوا اليه بقياد النثر وعكفوا هم على الشعر وهذه
أحدى الدواعي التي جعلت مأثور الشعر أكثر من مأثور النثر كما سنبذكر
في محاکمتها قلة وكثرة الى الطبيعة بعد

قد يقال كان للإسلام أن يغطي على القديم ويخذل الناس عن روايته
ولكن كيف وقد أودع تعاليمه وأحكامه كتاب الله وهو الذروة في البلاغة
وحديث رسوله وهو المقفى له من بعده وليس من سبيل الى استمرار فهمهما
والحرص على عدم استغلاق معناها الا برواية لغة العرب والمحافظة على تفهم
مأثورها وهذا لعمري داع ديني دعا الى الرواية والمدارسة منذ فجر الإسلام
وناهيك بالتوازع الديني وبخاصة في ذلك العهد من حاث للهمم الى العمل ونائل
من النفوس مكانة التقديس والاجلال

حرص المسلمون اذن منذ جاء الاسلام على اديهم حرصهم على دينهم وهاهو ذا
عبد الله بن عباس رضي الله عنه في تفسيره القرآن الكريم كان يجلس له
ولدراسة الادب في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فتضرب اليه اكباده
الابل من أقصى الجزيرة وأبعد منه لسؤاله عن معاني كثير من مفردات
القرآن ومحاكمته في معانيها الى المأثور من كلام العرب فيروى في ذلك الكثير
من الاشعار وما بغائب عنا ما كان لنافع بن الازرق أحد رؤساء الخوارج إذ
ذاك في هذا الباب . ومن ثم كانت مذاكرة للادب القديم على عهد الخلفاء
الراشدين بل وبالسنه بعضهم ثم هذا حذوهم في هذا وبشكل أوسع دائرة
وأبعد مدى ملوك بني أمية فكانت مجالسهم مثارا للادب يسوق اليه الاستمتاع
واللهو والتسلي والتفحص أو المتابعة والمتابعة والتفحص والبلد الى ما كان
قائما بجوار هذا في البادية لما استمر تظاهر صورته بكأظ طويلا وبمراد البصرة
الذي خلقها إذ ركبت ريحها بل بسائر المجالس والمنتديات ومن هنا نشأت
الرواية بالمعنى الاصطلاحي وكثر الرواة ولم يكمل كامل هؤلاء يثقل بالحفظ
والتعليق حتى انتشرت الكتابة وكان التدوين فرغ عنهم ما أثقلهم وجعلهم
يوجهون جهودهم الى ما بعدوا له بعد من البحث والتحقيق

هذه طريق لا عوج فيها ولا اعوجاج نبيها الادب الجليل حتى رعته
بطون الكتب فاذا بالكم الذي وصل اليها منه شافع في عقاديره لما يقتضيه
العقل وتطلبه سنة البقاء . فالشعر وقد صار ثم العرب وحده لما تقدم من غزو
القرآن النثر غزوة فالت من شأنه وصرفت الاذعان عنه قد حفظ منه أكبر
ما حفظ من النثر الذي درس معظمه قبل أن يتحول بنقلات الروايات والأوصاف
منه ما تنفذ دونه المصحف وتبف الخباير لأنه للجماعة والشعر لأفراد على أن

من الاسباب الداعية الى قلة مأثورة أيضا ما هو سابق للإسلام إذ لا شك أنه أصعب من الشعر حفظا وأبعد استدكارا وهذه نظرية خضع لها النثر في أقسامه كما خضع لها أمام الشعر في جملة فمكان أكثره رواية أيسره حفظا إما لقلة ألفاظه وصغر صوره كما في الحكم والأمثال التي سهل على الألسنة تردادها وكانت الحوادث تدعو الى استعمالها فوصل منها أكثر مما وصل من غيرها بينما يحزم العقل أنها لا بد كانت قلة في كثرة ونقطة في لجة لصعوبة معالجتها وندرة الأشخاص القديرين عليها وأما لأنه مع طوله تقرب الى الشعر قليلا بالازدواج أو كثيرا بالسجع فكان في ذلك الاتزان في التقسيم والتوافق في التقفى ما جعله سهل الحفظ على الذهن شديد الاعتلاق بالنفس ومن ثم نجد المروى من المسجوع أكثر من المزدوج وهذا أكثر من المرسل مع أن الطبيعة التي يخضع لها صدور الكلام تأتي الا العكس ولكن ما قيل شيء والذي روى شيء آخر ومن ثم أيضا لم يصلنا عن الجاهلية من الكلام المرسل الا القليل مع أنه كان الغالب الكثير ولولا أسباب خارجة عن كنهه الواصل قد حملت على روايته لباد كما باد سائر فتعزية أكثرهم بن صيفي حكيم العرب لا أحد ملوكها في أخيه وهي رسالة وكلمة قبيصة بن نعيم رئيس وفد بني أسد الى امرئ القيس عقب مقتل أبيه وهي رسالة أيضا وفيها بعض ازدواج لولا مكانة الحادئين ومن قال ومن قيل له لغفتا فيما عفا وزالتا فيما زال ولمثل هذه الاسباب الخارجية كان المأثور في السجع عن الكهان أكثر من غيره لغرابة موضوعه واتصال بعضه بالعقيدة مع ما فيه من اطالة التقفية وهذا حكم فيه ان لم يصدق كما صدق نسبة .

أبعد هذه الطريق التي تكنفها الطبيعة ويسايرها العقل يطعن في الادب

الجاهلي ويرمي كله بالوضع والاختلاق لتوافقه زاده فيها بعض الدسائس
وأساطير وضعها عليه بعض المتصاحسين ووطاعين ورجعت الى آحاد في جمهرة
الرواة ثم يدعى بجرأة الى دراسته في صدر الاسلام وعصر بني أمية كأن الزمان قد
وقف وكأن شيئا من احداث الاسلام المزلزلة لم يك كان . ان هذا لا يحجاف
بالتفكير وظلم العقول فالادب الجاهلي كثرة تضاهل أمامها تلك الزعانف الموضوعة
وصحيفة تنكسر عليها هذه النفاخت الطائفة على انها اذ ألصقت به وهو منها
براء لم يتلبس الامر فيها على روايته بل مازوها ميز الخبيث من الطيب ووسموها
بميسم الزيف أمام الجيد الصحيح عرفوا ذلك شفاها حيث كان مرجع الادب
الحفظ ثم دونوه واضعين أمامه أدلة الزيف حين التدوين فما بال المدعين هذه
الدعوى ينسبونها اليهم تجديدًا ويدعونها ابتكارًا وآثار أقلام الاقدمين من
أكثر من عشرة قرون تكاد تخرج اليهم من بطون الكتب ففسود عليهم صفحات
وجوههم من هول ما يقولون

أكان ما يقولون حقًا ولم تظن اليه الشعوبية في القديم وقد مكثت قرونا
تغير العرب ما شاء لها التعبير فتتأسس في كمالها نقصا وتجعل ما تظفر به من الحقيقير
عظيمًا ثم لا تهتدي الى أن خير ما تفخر به العرب وهو قديم أدبها ليس لها وإنما
هو شيء انتعلته زورا وادعته جهتا ما فتقف أمام ذلك لا تقدم رجلا ولا تحير
جوابا بينا يكفيها نقضه وحده مثنوة الكد المتعب والكدمح المضنى ألا انها
وفقت لاعتن خفاء وغيب ولكن أمام نور بهرها وساطان تهرها لم يكدميلصق
به كلف من ظلام أو ينسب اليه زيف من ضلال حتى دبره ذووه ورموا به
بعيدا مزجر الكلب ومنبذ النواة ولقد كان من الراميين النابدين بعض
الشعوبيين .

وأكان ما يقولون حقا ويتركه في الحديث جمهور المستشرقين دون أن
 يخوضوا فيه بالتجريح والتخديش فيسودوا ناصع بياضه ويصيبوه في قدسه
 وجلاله بدل أن يرووه ويخدموه ويعترفوا به اعتراف من قهره الحق وأنطقه
 الواقع ثم يخرجوا من هذا بنتائج عن العرب قد يسوءهم تدوينها أولا يرتاحون
 الى اثباتها فعلوا ذلك ولم يشذ عنهم الا من أضله الله على علم فشابع التعصب
 الديني وزحف الى الطعن في دين العرب من طريق الطعن في أدب العرب فأخذ
 ما ميزه الرواة لينبذ فأتبته وما فحسوا عنه ليستبعد فقره ومع ذلك لم يشايعه
 بنو جنسه ومنهم بعض رجال الدين وإن للحق لأنصارا حيث تظن الظنون
 وتتوقع الخصوم

وإذا كان الأدب الجاهلي كله دسا وتخيلا فما هو اذن الأدب الذي كان
 يروى في صدر الاسلام والدولة الاموية قبل أن يخاق الدساسون أمثال حماد
 الراوية في النصف الاول من القرن الثاني وخلف الاحمر من بعده في نصفه
 الاخير. وهلا اذا كان الدس يقع جزافا وبغير حساب كان الاولى بالداسين
 أن يستكملوا لنا مواضع نقص في أدبنا كانت ولما نزل فاعرة فاها حتى يكون
 ذلك أسوغ لقولهم وأستر لدسهم كأن يدسوا بعضا من خطب على رجال
 جاهليين ضرب المثل بفصاحتهم في الخطابة وكانوا فيها حكما وعلى أهلها
 قواما وليس للواحد منهم في المأثور شيء أوله مالا يتعدى الكلمة والكلمتين ليس
 لأن الامر لم يك كما يتخرون فوضى سبيل لا ضابط له ولا رادع عنه. وهل
 يقبل منا أن نمرر المدسوس على رجال النقد وأرباب الكلام في عصور التدوين
 والتأليف ثم نزعم لا نفسنا الا أن أنا به أعرف ولم^{له} أميز وهل ميزنا غير ميزوا
 الا ماسقناه قولا بلا حجة ونتيجة من غير مقدمة

ثم يقولون إن اختلاف الرواية دليل على الدس والله نشهد أن الروايات في عهد يقع الاعتماد فيه على الحفظ وحده دون كتاب يسند أو نقش يؤيد لو اتحدت ولم نر فيها ما رأينا من خلاف هو الطبيعي المعقول لكان لنا أن نتخذ الاتفاق دليل الدس فكيف يتخذ الاختلاف دليلاً علينا وهو لنا ويساق ضدنا وهو حجتنا

آن للمجددين بالمعنى الذى يقحمون فيه كلمة التجديد لا بالمعنى الذى نحترمه نحن أن يرعوا للقديم عهده ولحق البحث حرمة وألا يتجاوزوا فى الأدب الجاهلى ميز المدسوس عنه الى نقضه من أساسه فانهم اذا نقضوه وما هم ببالغيه ثم عادوا بعد ذلك يبنون وقع بناؤهم على غير أساس فاداما نفخوا فيه وصوروه وتساندوا اليه فأقاموه لا يلبث أن يخونهم وينهار « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض كذلك يضرب الله الامثال »

المنثور والمنظوم

أيهما أسبق إلى الوجود

أنا نقول بسبق النثر على الشعر

أظنه من الملائم في هذا المبحث أن يعرض المتصدي له أولا وقبل كل شيء للمعنى العام الذي يفهم من كلتا كلمتي نثر ونظم حتى إذا ما جلاه وأبان عنه وجعل الفارق بين المعنيين واضحا ملموسا عمد إلى هذا الفارق بما كفه إلى الطبيعة ويستهديه القول فإذا هو الحكم الفصل والحق المبين . وأظنه من السهل محاولة ذلك مادامت كل كلمة في ظاهر لفظها تمدنا بالمعنى الذي ينبئ أن يكون الوجه في التفرقة والعامل على التمييز وأن ما عداه من مدلولات ليس إلا ضيائم متممة مهمما انحازت إلى أحد الجانبين وظهرت فيه بمظهر المختص الملازم لا تعدو أن تكون شركة بينهما غير ناهضة وحدها أن تصالح فصلا . فما هو ذلك المعنى البارز الذي تحمله كل كلمة والذي من أجله قدمنا تلك المقدمة وله صدرنا هذا التصدير هو بلا اجتهاد في الفكرة ولا اطالة في التعبير أن ياتزم الشاعر في شعره وزنا وقافية يجعلانه مقيدا منظوما ويتحرر منها الناثر فيسجى كلامه مطلقا منشورا . واذن النثر أبسط من الشعر وفي الشعر كلفة ليست في النثر والنثر أقرب منالا ورجاله أكثر عددا والشعر أصعب محاولة والشعراء آحاد في أوساط الناس وهنا نسأل نواشيس الطبيعة والكون وعوامل النشوء والارتقاء أيهما لذلك يجب أن يكون أسبق كونا وأقدم وجودا فيكون الجواب لا محالة ما أجبنا به آنفا من أن النثر أسبق من الشعر

وليس انحيازنا في التفرقة بين النثر والشعر الى جانب اللفظ دون المعنى لانا
 لا نهبا بالمعاني أو لانا نسوى بينهما فيها فما يجهل أقل الماهين بالأدب أن الشعر
 يعتمد على الخيال أكثر مما يعتمد على الحقيقة وأنه يستوحى الشعور أكثر مما
 يستوحى الفكر على عكس النثر فيهما والمكن متهما أغرقنا في التفرقة المهنوية
 فليس في استطاعتنا أن نباعد بين الخيال والنثر ولا بين الشعر والحقيقة فكم
 نثر أو غل من شعر في التخييل والتصوير والتعبير عن الوجدان والشعور وكم
 شعر هو وعاء الحكمة والفلسفة وأدخل في باب التفكير منه في باب الخيال انما
 انحزنا إلى جانب اللفظ اللابنة عن وجه التسمية بالنثر والنظم وأما لم تك عبثا
 ولم تأت اعتبارا انما وضعها الواضعون عن بصيرة وفكر لتكون خير دهر عن
 الفارق وأوضع مترجم عن التمييز نعم عطف الواضعون على النظم فوضعوا له
 اسما آخر هو الشعر اشارة منهم إلى أن الوزن والتنقيص وان وقعت بهما المفاصلة
 والمخالفة ليسا وحدهما المكونين للشعر بل لا بد أن يغلب على دعناد الشعور حتى
 يكون اغترافه من ينابيع العاطفة والخيال أكثر مما يغترف من ينابيع الحقيقة
 والتفكير .

يقولون المخالفون في الفكره إذا كان النثر أسبق من الشعر فابالنا نجد للادم
 القديمة شعرا ولا نجد لها نثرا ولكن فاتهم أن تلك قضية لا نفهمها كما أصدروها
 ولا نستطيعها كما هيئوها الا إذا سلمنا لهم بقضية آخرين كلتها أبعاد عن
 العقل من الاخرى

فأما أولاهما فانهم يعنون بالأئمة القديمة أول ما يعنون اليونان والرومان
 فيمنعون عنهما النثر ويستبتمون الشعر كأنما كل افراد هاتين الامتين أو أفذاذها
 كانوا شعراء وكأنما لم تهيم أحوالهما الطبيعية — والاولى أمة فلسفة ومنطق

والثانية أمة تقنيين وتشريع ثم هما دعا أمتا حكم وفتوح — أحدا من رجالتهما
ليدافع عن فكرة أو يعال لقانون أو يدعو إلى حرب وقنال. مثلا كن الأسير
مع العقل والاطوع للفكر أن يقولوا كن لما نشر وشعر والكن الشعر كن
قليلًا والقليل محروص عليه نوصته الأفهام وناقضته الرواة في وقت تنشؤ فيه
الامية وتندر أو تنهدم المكتابة التي لا يتسع لقيد النثر سواها ثم الشعر مع ذلك
أسير حفظًا وأكثر ذيوغا نعم كن لهم أن يقولوا ذلك فيقبل القول ويستقيم
الاستنباط ويكونوا منطقيين كما يدعون

وأما الثانية فأنهم يريدوننا على أن العرب في جاهليتها لم يكن لها نثر وأن
ما أشرعها موضوع محتاق وهذا لعمري تهجم على العقل ومطالبة لنا أن نكون
أمامهم أشباح أناسي لا أناسي ذوي عقول والا فكيف لم يكن للعرب في جاهليتها
نثر وقد تحداهم القرآن الكريم في النثر ووصفهم بأنهم كانوا قودا لدا واللد في
اللغة شدة الخصومة والمحااجة تمشيا مع ما هو مقرر معروف من أن التحدى
لا يحتفظ بكيانه ولا يكون له قوامه الا اذا وقع لكل أمة في الباب الذي تزعم
فيه نبوغا وتدعى لنفسها عليه قوة واقتدارا وإذا كان الأمر هنا كما يقولون
أفما كان الأجدر بالقرآن أن ينزل كما نزلت سائر الكتب قبله بلغة لا يرتفع
فيها الى ذروة الفصاحة كما ارتفع حتى يكونوا أفهم لمعانيه وأقدر وقد نزل لهم
على الانتفاع بما حواه ثم يلتمس النبي للتحدى منحى آخر غير الفصاحة والبيان
وإذا أبي المخالفون إلا الفصاحة والبيان فان في مقدورنا مجازاة لهم أن نقول
كأن ينبغي لذلك أن ينزل القرآن شعرا لا نثرا لأنهم لازالوا يدينون لبعض
الجاهليين بالقدرة على قول الشعر لولا أن في تلك المجازاة هدم لما لا يرتضى ولا
يرتضون فتمد جرد الله نبيه من أن يكون شاعرا كما جرده من أن يكون قارئاً
وباعد بين القرآن والشعر فأعجز به منشورا أمة ذات قدرة فائقة على النثر

وقد أثر عنها فيه ما يؤيد تلك القدرة ويشهد بها ولا يمكن ضاع معظمه وبقى القليل
خضوعا لسنة السكون في الاضاعة والابقاء فلا محل اذن للشك في هذا القليل
انما الوجه في الشك يكون إذا كثر أو بادر

ويقولون أيضا إن في عوام الأئمة الحديثة من يقول الشعر بلغاتهم بينما
لا يحسن أحد منهم النثر وهذا قول نسلم بشرطه الأول دون الثاني فإن من
يختلط بطبقات العوام ويرقب عن كثب مجرى أحاديثهم ومحاوراتهم يجد فيهم
كما نشهد في عوام المصريين مثلاً سماراً تدار حولهم الحلقات وترهف إليهم
الاسماع فلا يزالون يلقون من عذب الحديث وجميل القصص ما لو كان هناك
تدوين للغتنا العامية لكان في الذروة من خصوصها والقيمة من آدابها . وإن في
تراشق امرأتين تختصمان في أحقر الازقة وأدنى الحارات لروعة لهذا الخصام
وقوة بيان لمناحيه لا تقل عن مثيلاتها في محاورة أو منافرة بما دون اللغة مثلاً
لقوة العارضة وآية على الاقتدار . وهل تجردت حياتنا العامة من حوادث
تدفع ذا رعاية ورياسة أن يحرض ويستنهض أو يخوف ويسترجع وذا قرابة
ولحمة أن يوصى ويرشد ويهظ ويذكر أم هل خلعت عنايتنا من حكم وأمثال
تضارع في قوة المعنى وشدة الانجياز نظائرها القديمة وتحتل من قلوب السامعين
الا أن ما كانت تحتله تلك في القديم لم تحتل في نثرها من شيء هو لنراختها
العربية ولا يمكن كثرة وانتشار السواد عليه صرف الازدهان عن تناقله وروايته
إلى شعرها الذي خلا من كثير مما حواه الشعر الصحيح فقل قائلوه واستخدم
دون النثر فيما كان أبقى له وأدعى إلى حفظه من حذاء وغناء مع ما في طبيعته
فضلاً عن تلك الحاجة وهذه القلة من سهولة الحفظ وسرعة الاستدكار

ثم هم يقولون إن الشعر وجد قبل النثر وحين ضاقت أوزانه عن مظاهر
العقل تحول الإنسان منه إلى الشعر ومعنى هذا أن كانت لنا عقول إن العقل
النثر

الانساني في طفولته كان قديرا على أن يعبر عما يريد به هذا الكلام الموزون المقفى ولا مكنه بهد أن ترقى وجاوز دور الطفولة والأدوار التي أعقبتها، فتم نضجه واستوى ارتد عاجزا عما كان عليه قديرا ولجأ في تعبيراته إلى الكلام المطابق من قيد التقفية والوزن . ياله حكما عليه من أولئك المخالفين إلا أن يعاند الطبيعة وما اتفق عليه الناس مرغمين دون أن يكون لهم إلى الخلاف فيه لو أرادوه سبيل ولسنا ندرى أيزكرون نتيجة لهذا أن الانسان خاق متحضرا ثم تبدى أم يزعمون أن اللفة وحدها شذت عن هذا الناموس العام أو أن الشعر تلى فرض سهولة التقفية والوزن خلو من كل منطق وتفكير. الحق أنا لا ندرى عنهم ماذا نقول. فالشعر بالغا ما بلغ من تصور وخيال لا غنى له في ذلك وفي مراعاة وزنه وقافيته عن عقل يسدى وفكر يهدى فما بالنا اذا كان بالفلسفة ناطقا ولادق نزعات العقل مصورا وقديما شبهوه بالدر المنظوم وما كان النظم بغير مجهود وتدبير وقالوا ان من الشعر لحكمة وما خلا منها منذ عرف في سالف الحقب وسابق الزمان

بقيت قالة أخيرة حملهم عليها التسليم ببعض الواقع هي قولهم إنا نقصد بالنثر المسبوق بالشعر النثر الفني ولا مكنهم في عجز أو تعاجز عن تحديد هذا النوع الذي يريدون لانهم ان أرادوا بالفنية الاجادة التي نطالها في أنواع المنشور من حكمة ومثل وخطبة ووصية ومفاخره ومناصرة على أن يساموا للجاهليين في ذلك بما هو مأثور قلنا لهم إن النثر قد بلغ اذن قبل الاسلام درجة لا تقل في مداها وقوة فصاحتها عما وصل اليه الشعر إذ ذاك وأن تلك الدرجة ما كانت لتكون دون أن يضرب النثر في القدم إلى قرون يتقدم فيها الشعر أو يكون طفلا يحبو بينا النثر قائم يجرى على قدمين هذا إلى ما قدمنا من السنة القاضية بسبق البسيط على المركب والبسير على العسير وما تلا ذلك من مناقشة ما يقولون

فان انكروا هذا المأثور كما يدعون رددنا عليهم ذلك الانكار بما لا سبيل لهم معه
إلى كلام لانهم يعترفون بما ورد عن صدر الاسلام من كل هذه الانواع ثم
يعترفون مع ذلك بما لها من فنية فائقة على هذا الاعتبار ضاربين المثل بكلام
رسول الله والصحابة وكثير من المخضرمين فهل كان هؤلاء جميعا قبيل الاسلام
من الفهاهة بحيث يزعمون ثم انقلبوا بين عشية وضحاها نثرين مهمرين ؟ انا
نفتخر منهم الجواب. أما إذا حددوا الفنية بالكتابة وأساليبها وصناعة الانشاء
ونظمها مما يسوق اليه تحضر الامم ويدفع به تقدم العمران فانهم ينصرفون
بذلك التحديد إلى ما انصرف اليه الناس واذن فلا جدة ولا خلاف وان كان
ذلك لا يرضيهم لانهم يأبون في هذا شأنهم في غيره إلا أن يكونوا مجددين
وذوى خلاف

النثر الجاهلي

أقسامه وأنواعه

إذا تتبعنا مادة المنشور الجاهلي لنرى كيف تتألف ألفاظها وتترابط أجزاءؤها نجد أن منها ما تحرر من كل قيد فأطلق النثر الكلام فيه اطلاقاً وأرسله رسالاً ومنها ما فصله جملاً يزوج بين كل اثنتين أو أكثر منها ومنها ما أضاف فيه إلى هذا الازدواج اتحاد التقفية في الفواصل فهو اذن ثلاثة أقسام قسم خلا من الازدواج والتقفية هو المرسل وآخر كان فيه الازدواج في الفواصل دون التقفية هو المزدوج أو المفصل وثالث ضم إلى الازدواج التقفية هو المسجوع ولا حاجة بنا بعد الذي تقدم في سبق النثر على الشعر أن نقول هنا إن المرسل لا بد وجد قبل المزدوج وهذا تقدم المسجوع فان ذلك من الضروري المفهوم انما الحاجة أن نقول إن السجع احدى الحلى اللفظية ذات التأثير البين إذا جاء عفواً غير متعمد ولذا التزمه السكبان والرافون وأطالوا فيه لحسن وقعته على الاسماع وشدة تأثيره في الطباع وسيتمضي كل هذا فيما سنسوقه من نماذج لأنواع النثر فله أنواع كما للشعر فنون هي الحكم والأمثال. والمفاخرات والمنابرات. والخطب والوصايا. وهما هي ذى

١ — الحكم والأمثال

الحكمة قول رائع يتضمن حكماً صحيحاً مسليماً به. والمثل قول محكى سائر يقصد منه تشبيه الذى حكى فيه بالذى قيل لاجله وهما صورة للكلام تصل إلى

الغاية القصوى في البلاغة من حيث انجاز اللفظ واصابة المعنى وحسن البيان
فترتاح اليها الطباع وتنشط لحفظها النفوس وتميل إلى الاحتجاج بها العقول
لانها تورث الكلام رواجاً وتكسبه حسناً وقبولاً. وكما تكون الحكم والامثال
نرا تقعان شعراً واكثرهما في النثر أو في عددنا وأكثر دورانا ولذلك عدا
من أنواعه لا من فنون الشعر

ولقد فاقت الحكمة على أسنة الكثيرين من العرب لما أفاض الله على هذه
الامة في بداوتها من سلامة النظرة ورجحان الفكر فكثير فيهم العقلاء الذين
تفجرت ينابيع الحكم على أيديهم فعرفوا بالحكماء وانصاع اليهم السادة والاشراف
للتقاضى في المناصرة وفض المنازعة في الخصومات فكان قولهم مرضيا وحكهم
حننا مقضيا نذكر منهم على سبيل التمثيل أكرم بن صيفي التميمي وعامر بن الظرب
العدواني

فأكرم كان من حكماء تميم وحكامها ذا فصاحة وبيان وعلم بالانساب
والاخبار ومن حكمه. ويل للشجى من الخلى ، ويل لعالم أمر من جاهله ، مقتل
الرجل بين فكيه ، إن قول الحق لم يدع لي صديقا ، في طاب المعالي يكون
العناء ، لم يذهب من مالك ما وعظك ، يشابه الامر إذا أقبل فإذا أدبر عرفه
الكيس والاحق ، نعم هو المرأة المغزل . وقد كان جل كلامه في المجامع
مبنيا على الحكمة وضرب المثل كما هي الحال في خطبته أمام كسرى في وفود
العرب وفي وصاته لقومه حين ظهر النبي صلى الله عليه وسلم ولبنيه حين حانت
وفاته فقد جاءت كلها ملائى بالحكم الناصفة والعظات البالغة

وعامر كان من حكماء قيس وذوي المكانة فيها ومن كلامه. رب أكلة تمنع
أكلات ، رب زارع لنفسه حاصد سواء ، الرأي نائم والهوى يقظان ،

ويل آملها نصيحة لو كان من يقبلها ، من جمع بين الحق والباطل لم يجتمعها له وكان الباطل أولى به ، من طلب شيئا وجدته وان لم يجده أو شك أن يقع قريبا منه ، إن مع السفاهة الندامة والعقوبة كمال وفيها ذمامة ، لو كان يميت الناس الداء لأحياءهم الدواء

ويوجد غير هذين حكماء كثيرون وحكميات كغيلان بن سلمة الثقفي وربيع بن حذار الأسدي وسامى بن نوفل الكنانى وعمرو بن حممة الدوسي وذى الأصبع العدواني وكهند بنت النخس الأيادية ، وحذام بنت الريان الجينية. ومن أقدم حكماء العرب لقمان وينسب إليه من الحكم. رب أخ لك لم تلده أمك ، الصمت حكم وقليل فاعله ، آخر الدواء الكى. ولكن العبرانيين ينازعون العرب فيه ويدعونه لا أنفسهم ويروون له حكما في كتبهم وليس لأحد الطرفين دليل حاسم ضد الآخر كما أن كثيرا من الحكم نسبت إليه على سبيل الشهرة لا التحقيق لجيئها غفلا من النسبة إلى ذويها ولصعوبة القطع في معظم الحكم بنسبتها إلى قائلها لكثرة تردها على الألسنة وتداول الاستشهاد بها في الكلام

هذا وكما كانت العرب قديرة على قول الحكم كانت كذلك وأقدر في ضرب الأمثال فليس بينهما من فرق سوى أن المثل لا بد فيه من أصل واقع ينقل عنه وقد يفرض له ذلك الأصل فرضا إذا صدر عن حيوان أو نبات أو جماد وتعرف أمثال النوع الأول بالحقيقية والثانية بالفرضية . والأمثال بتوعيتها مرعاة ترينا أحوال الأمة في كثير من نواحيها وميزان وزن به إلى قدر أدبها ولغتها ورقبها وانحطاطها

ولقد عني السلف عناية كبيرة بتدوين الأمثال. ومن خير ما وصلنا في هذا الباب جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري المتوفى سنة ٣٩٥ هـ ومجمع الأمثال لأبي الفضل الميداني المتوفى سنة ٥١٨ هـ وهو أنظمها وأوفاهما فقيه أكثر من

ستة آلاف مثل رتب على حروف المعجم وفي آخر كل باب منها ما جاء على
أنه للعرب ثم للمولدين وهذا بعض من كل نوع

الأمثال الحقيقية

١ — تجوع الحرة ولا تأكل بشديها . يضرب في صيانة الشخص نفسه
عن مخسيس المكسب وهو للحارث بن سليل الاسدي يقوله لامرأة
تزوجها على كبر منه وهي شابة فلما بنى بها بكت فقال المثل
وطأها .

٢ — الحديث ذو شجون . يضرب للقول يجر بعضه بعضا وقائله
أد بن طابخة

٣ — سبق السيف العذل . يضرب للفائت يستحيل تداركه وقائله ضبة
ابن أد بن طابخة

٤ — ما يوم حليلة بسر . يضرب في كل أمر متعارف مشهور وقائلته
حليلة بنت الحارث بن أبي شمر الغساني وكان أبوها وجه جيشا
الى المنذر بن ماء السماء الذي فأخرجت للجنود طيبا طيبتهم به وكان يوما
مشهورا فقالت المثل

٥ — قطعت جهيزة قول كل خطيب . يضرب لمن يقطع على الناس ما هم
فيه بحماسة يأتي بها وسببه أن قوما اجتمعوا يخطبون في صبح بين
حينين قتل أحدهما من الآخر قتلا ويسألون الرضا بالدية وبيناهم
في ذلك جاءت أمة يقال لها جهيزة قائلة (إن القاتل قد ظفر به بعض
أولياء المقتول فقتله) فقالوا عند ذلك هذا المثل .

٦ — إن أخاك من وإسالك . يضرب في الحث على مراعاة الإخوان وقائله
خرم بن نوفل الهمداني .

٧ — ان العوان لا تعلم الخمرة . يضرب للعالم بالامر المجرب له والعوان المرأة النصف بين الفارض والبكر والخمرة هيئة الاختار وهو لبس الخمار

٨ — ان خيرا من الخير فاعله وان شرا من الشر فاعله : يضرب في الحث على فعل الخير والبعد عن الشر وقد ورد على لسان واعظ لعمره ابن هند

٩ — ان غدا لناظره قريب . يضرب في الامر برجي قرب وقوعه وقائه قراد بن أجدع للنعمان بن المنذر حين قال له ما أراك الاها الكا غدا فقال المثل

١٠ — ١٩ هذا وقد تستتبع الحادثة الواحدة ضرب أمثال عدة ومن أجمع الحوادث في ذلك ما روه في أصل المثل (ثكل أمها ولدا) من أن رجلا يقال له بيهس كان سابع سبعة إخوة فأغار عليهم ناس بينهم وبينهم حرب في ابل لهم فتتلوهم الا بيهس هذا تركوه لانه كان يحقق وكان أصغرهم ولم يشاءوا أن يحسب عليهم رجلا ثم انهم نحروا جزورا وكان اليوم قائظا فقالوا ظللوا لحكم لا يفسد فقال بيهس (اكن بالاثلاث لحم لا يظال) فذهبت مثالا ولما أخذوا يشوون ويا كلون قال أحدهم ما أطيب يومنا هذا وأخصبه فقال بيهس (اكن على بلدح قوم عجنى) فذهبت مثالا ثم أتى بيهس أمه فأخبرها الخبر فقالت وما أتى بك من بين اخوتك فقال (لو خبرت لا خبرت) فأرسلت مثالا ولما أخذت أمه تعطف عليه وترق له قال الناس لقد أحبت أم بيهس بيهسا فقال (ثكل أمها ولدا) فذهبت مثالا ثم ان أمه أخذت تلبسه ثياب اخوته فيلبسها ويقول

(حبذا التراث لولا الذلة) وهذا مثل أيضا وحدث أنه مر على نسوة يصلحن عروسا لا هدايا إلى بعض قتلة إخوانه فرفع ثوبه حتى غطى رأسه فقلن له ويحك ما تصنع يا بيهس فقال (البس لكل حالة لبوسها إما نعيمها وإما بوسها) فذهبت مثلا ثم إنه جلس مرة يأكل وحده ويقول (حبذا كثرة الأيدي في غير طعام) فأرسلها مثلا وقالت أمه لا يطلب هذا بشأرا أبدا فقالت لها امرأة سمعتها (لا تأمني لاحق وفي يده سكين) فذهبت مثلا ثم إنه علم أن أناسا من أشجع ومنها قتلة إخوانه في غار فجاء إلى خال له يدعى أبا حنش فقال له (هل لك في غنيمة بارده) فأرسلها مثلا ثم انطلقا حتى إذا كان على باب الغار دفع بخاله وقال ضربا أبا حنش فقال من في الغار إن أبا حنش ليطل فقال أبو حنش (مكره أخاك لا بطل) فذهبت مثلا كان العاشر في هذه الحادثة

الامثال الفرضية

١ — كيف أعاودك وهذا أثر فأسك . تزعمه العرب على لسان حية كانت في واد فنهشت رجلا فقتلته فذهب أخوه ليقتص منها فهاهده على أن يتركها وتعطيه كل يوم دينارا ومكثا على ذلك دهرا ولما أئثر الرجل ذكر أخاه وصمم على قتل الحية ولا كنه لما ضربها بفأسه أخطأها وأثرت الفأس في باب جحرها ثم انها قطعت عنه الدينار فندم فقال لها هل لك في أن نتواثق ونعود إلى ما كنا عليه فقالت (كيف أعاودك وهذا أثر فأسك) فذهبت مثلا يضرب لمن لا يجاب إلى عهد لظهور آثار غدره

٢ — إنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض . يروى على لسان ثور من ثلاثة أبيض وأسود وأحمر كن في أجمة ومعهن فيها أسد لا يقدر على أحده منهن لا اجتماعهن فقال يوما للأسود والأحمر لو تركتاني أكل الأبيض لصفت لنا الأجمة لأن لونه مشهور يدل علينا فقالا دونك فكله فأكله

وبعد أيام قال للأحمر لوني لونك قد عني آكل الأسود لتصنفوا لنا الالجمة
فقال دونك فكله فأكله حتى إذا كانت أيام أخر قال للأحمر اني آكلك
لا محالة فقال ولكن دعني أنادي ثلاثا قال افعل فنادى (إنما أكلت يوم
أكل الثور الأبيض) فأرسلها مثلا يضرب لمن يسلم في أعوانه فيكون في
هذا التسامح هلاكة

١١-٣ هذا ومن الحوادث الفرضية ما يستدعى صدور جملة أمثال كما تقدم في
الحقيقة ومن ذلك ما ترجمه العرب من أن أربنا التفتت تمرة فاختلسها
الثعلب فأكلها فانطلقا يختصمان إلى الضرب فقامت الأرنب يا أبا الحسل قال (سميها
دعوت) قالت أتيناك لنختصم اليك قال (عادلا حكما) قالت فاخرج
الينا قال (في بيته يؤتى الحكم) قالت اني وجدت تمرة قال (حلوة فكلها)
قالت فاختلسها الثعلب قال (لنفسه بغي الخير) قالت فاطمته قال (بحقك
أخذت) قالت فاطمني قال (حر انتصر) قالت فاقض بيننا قال (قد
قضيت) ثم قال (حدث حديثين امرأة فان لم تفهم فأربعة) فهذه تسعة
أمثال على لسان الضرب يضرب كل منها في مثل ما قيل لاجله وهي
مروية في مضرب المثل (في بيته يؤتى الحكم) وفي هذا القدر من
الأمثال كنفايه

٢ — المفاخرات والمنافرات

المفاخرة كلام يجري بين اثنين أو أكثر أو على انفراد تمدحا بالخصال
ومباهاة بالاصول و كان للعرب بها ولع شديد وافتنان كبير لأنهم كانوا قبائل
وبطونا بينهم من التناحر والتنازع ما أجمع فيهم نيران الحروب وجعل كلاء على
تمام علم بما آثره ومخازي سواه فتناولهم النزوع إلى المفاخرة من النعمة إلى القناع

فما بينهم وبين غيرهم من الأمم كالفرس والروم وبينهم وبين أنفسهم في يمن
ونزار ثم في ربيعة ومضر وفي بكر وتغلب من ربيعة وقيس وتميم من مضر
وكذلك بين قبائل اليمن بعضها وبعض وهكذا لم يزل يتفاضل المتماخرون في بطونهم
وأفخاذهم حتى تناول ابني العم في العشيرة الواحدة فكان على أشده وفي منتهاه.
وكانت المتماخرة نوعا متميزا من أنواع المنشور وكالمتماخرة المتافرة وهي مثلهما
وأشد في هذا الباب كسان الرجلان إذا تنازعا النخز وادعى كلاهما الفوق على
صاحبه نفرا إلى حاكم يرضيانه ليقضى بينهما فمن فضله على صاحبه كان
له غنم الحكم وعلى صاحبه غرم الجمل المفروض من الابل أو غيرها وكلا
النوعين كثير الامثلة والوقائع

فمن المتماخرة ما روى من أن كسرى قال للنعمان بن المنذر يوما هل في العرب
قبيلة تشرف على قبيلة قال نعم قال فبأي شيء قال من كانت له ثلاثة آباء متواليه
رؤساء ثم اتصل بالرجال الرابع فإليت من قبيلته فيه وتنسب إليه قال فاطلب ذلك فطلبه فلم
يصبه إلا في آل حذيفة بن بدر الفزاري وآل حاجب بن زرارة التميمي وآل بسطام
ابن قيس الشيباني وآل الأشعث بن قيس الكندي فجمع هؤلاء الرهط ومن تبعهم من
عشائرتهم عند كسرى وقال ليتكلم كل رجل منكم بما أثر قومه وليصدق فكان
حذيفة بن بدر الفزاري أول متكلم وكان ألسن القوم فقال قد علمت العرب
أن فينا الشرف الأقدم والعز الأعظم وما أثر للصنيع الأكرم فقال من حوله
وتم ذلك يا أخا فزارة قال ألسنا الدعائم التي لا ترام والعز الذي لا يضم قيل له
صدقت ثم قام الأشعث بن قيس قبل ربيعة وتميم لقرايته من النعمان فقال قد علمت
العرب أنا نقاتل عديدها الأكثر وزحفها الأكبر وأنا غياث الكربات ومعدن
المكرمات فقالوا ولم يا أخا كندة قال لا نا ورثنا ملك كندة فاستظللنا بأفيائه

وتقلدنا منكبه الاعظم وتوسطنا بحبوحه الاكرم. ثم قام بسطام بن قيس فقال
قد علمت العرب أنا بناة بيتها الذي لا يزول ودغرس عزها الذي لا يحول قالوا
ولم يا أخا شيبان قال لا أنا أدركهم للشار وأضربهم الملك الجبار وأقومهم للحكم
وألدهم للخصم. ثم قام حاجب بن زرارة فقال قد علمت العرب أنا فرع دعامتها
وقادة زحفها قالوا ولم يا أخا تميم قال لا أنا أكثر الناس عداواً وأنجبهم طراوليدا
وأنا أعطاهم للجزيل وأحملهم للثقل وبعدئذ قام قيس بن عاصم السعدي فقال لقد
علم هؤلاء أنا أرفعهم في المكرمات دعائم وأثبتهم في النائبات مقادم قالوا ولم
يا أخا سعد قال لا أنا أدركهم للشار وأمنعهم للجبار وأنا لا نكل إذا حملنا ولا
نرام إذا حملنا. فقال كسرى حينئذ : - ليس منهم إلا سيد يصلح لموضعه وأسى
حباءهم وأكرم ما بهم

ومن المنافرة ما كان بين خالد بن مالك النهشلي والقعقاع بن معبد بن زرارة
التميمي فقد تنافرا إلى أكرم بن صيفي أيهما أكرم وجعل بينهما مائة من الابل
تكون على المفضول فطلب اليهما أكرم أن يرجعا عما جاءا إليه فأبيا فكره أن
يحكم بينهما واسكنه حبس الابل وبعث بهما إلى ربيعة بن حذار الأسدي
ليقضى بينهما فلما قدما عليه وأخبراه بما جاءا من أجله قال هاتيا مكارمكما
فقال خالد أعطيت من سأل وأطعمت من أكل ونصبت قدوري حين وضعت
السماك ذيوها وطعنت يوم شوا حط فارسا فجلالت فيخذه بفرسه فقال وما عندك
يا قعقاع فأخرج قوس حاجب بن زرارة وقال هذه قوس عمي حاجب رهنها
عن العرب ووفى بها وهاتان نعلا جدي زرارة قسم فيهما أربعين مرباطا وهذا
زربيه لم ير ناره خائف إلا أمن ولم يمسك بطنب فسطاطه أسير الأفك فنادى
ربيعة بن حذار إن السماحة واللهي والمرباع والشرف الأسبع للقعقاع ألا اني
نفرت من كان أبوه معبدا وعمه حاجبا وجده زرارة

هذا وكثير ما كان يعمد الحكم الى الصالح بين المتنافرين تفاديا للشر وحسما
للإخلاف فيقع كلامه فيهما من أروع الخطب في الدعوة الى السلام والاعتصام
بجبل المودة والوئام ومن ذلك ما كان من هاشم بن عبد مناف في خزاعة
وقريش حين نفرتا اليه فقد خطبهم بما أذعن له الفريقان بالطاعة قال :-

أيها الناس نحن آل ابراهيم وذرية اسماعيل وبنو النضر بن كنانة وبنو
قصي بن كلاب وأرباب مكة وسكان الحرم . لنا ذروة الحسب والنسب ومعدن
المجد ولكل في كل حلف يجب عليه نصرته وإجابة دعوته الا مادعا الى عقوق
عشيرة وقطع رحم ^{كثيرون}
يا بني قصي أنتم كغصن شجرة أيهما كسر أو حش صاحبه والسيوف
لا يصان إلا بغمده ورامي العشيرة يصيبه سهمه ومن أمحكه اللجاج أخرجه
إلى البغي .

أيها الناس الحلم شرف والصبر ظفر والمعروف كنز والجود سؤدد والجهل
سفه والأيام دول والدهر غير والمرء منسوب إلى فعله وما خوذ بعمله فاصطنعوا
المعروف تكسبوا الحمد ودعوا الفضول تجانبكم السفهاء واكرموا الجليس يعمر
ناديكم وحابوا الخليط يرغب في جواركم وأنصفوا من أنفسكم يوثق بكم .
وعليكم بمكارم الاخلاق فانها رفعة واياكم والاخلاق الدنية فانها تضع الشرف
وتهدم المجد وإن نهمة الجاهل أهون من حزيرته ورأس العشيرة يحمل أثقالها
ومقام الخليم عظة لمن انتفع به

فقالوا رضينا بك أبا نضلة وكانت كنيته وتصلحنا

ومما يذكر عن هاشم بن عبد مناف في المنافرة أن أمية بن عبد شمس لما
حسده مكانته في قريش طلب منافرتة فكره ذلك ولكن قريشا أكرهته
عليها فتنافرا إلى أحد كهان خزاعة على خمسين ناقة سوداء تنحر بمكة وعلى
الجللاء منها عشر سنين فلما نزلوا على الكاهن ابتدرها بقوله . والقمر الباهر

والكوكب الزاهر والغمام الماطر وما بالجو من طائر وما اهتدى بعلم مسافر
من منجمد وغائر لقد سبق هاشم أمية إلى الفاخر فقال أمية من انتكاث الزمان
أن جعلناك حكما فقال له تنافر رجلا هو أطول منك قامة وأعظم منك هامة
وأحسن منك وسامة وأقل منك لآكمة وأكثر منك ولدا وأجزل منك صنفدا
ونهرها شما فأخذ هاشم الابل فنهرها وأطعمهم وخرج أمية إلى الشام فقضى
بها الأجل المضروب. ويذكر المؤرخون أن هذه المتافرة كانت بمثابة التسجيل
لما كان من عداوة راسخة بين أمية وهاشم ورثها عنهما بعد الأبناء والأحفاد

٣ - الخطب والوصايا

منشأ الخطابة . أغراضها . تأثيرها . منزلتها

تفرقت العرب في باديتها المترامية الأطراف الواسعة الأكناف قبائل متشعبة
تتمسك كل منها بهصبيتها ونهرتها وتحرص على عزتها وكرامتها وتنقاد إلى
رئيس هو ملاك أمرها وقوام شأنها ترى فيه رمزا نفعتها وعنوان مجدها وتختاره
من أكرم العناصر فيها وأقدرهم على التفاهم معها حتى يكون قلبها نابض ولسانها
الناطق يهيب بهم في كل حادث ويجمعهم لكل خطب فيكون له كلام ومنهم
استماع . ومن ثم كان من ألزم سمات الرئيس وأظهر الصفات فيه مقدرته على
القول وتما لك زمام البيان فنشأت الخطابة سابقة في الرؤساء ونبع فيهم من
مصاقع الخطباء الجرم الغفير حتى كان لكل قبيلة خطيب

فالخطابة اذن وليدة حاجة العرب الطبيعية ونظام عيشهم الاجتماعي ولقد
رفع من شأنها فوق ذلك كثرة الدواعي اليها وانتشار الأمية بينهم حتى كانت
وحدتها مفزعهم واليها إذ لا كتابة مرجعهم

فبها كانوا يخرضون على القتال وشن الفارات والأخذ بالتأر وبت الحية
في النفوس وتحبيب الموت إلى الجبان في بيعة تتطلب منهم ذلك كل وقت وأن.
وبها كانوا يدعون إلى السلم كلما اقتصروا بشرا الحرب فلا يزال خطيبهم يفيض
في أضرار القتال ومنافع السلام حتى يترجع ما في صدورهم من شغل ويستل ما
بنفوسهم من حقد فإذا هم قد أخذوا إلى السكون وطأوا أخوانا راشعين ولو
إلى حين

وبها كانوا يتآمرون بالمعروف إذا نصب معينه ويتناهون عن المنكر إذا
زخر تياره فيحبون في الخير ويغضون في الشر ويوصون باقتناء المحامد والتخاقق
بالمكارم. وكثير من خطبائهم كان دأبه العظة والاعتبار وهم التذكير والإنابة
ليخلص النفوس من أرجاسها ويظهر القلوب من أدرانها

وبها كان تفاخرهم بالأحساب والأنساب وتكاثرهم بالأموال والأولاد
وتباهيهم بالمقدرة على الكلام لمجرد الكلام والدلالة على فوقهم في الفصاحة والبيان
في كثير من المجمع والأسواق

وبها كانوا يؤدون واجب السفارات بين بعضهم وبعض أو بينهم وبين
مجاورهم في الأشياء العامة من تأمين سبيل أو إجارة تجارة أو تهينة أو تعزية
فلا يزالون يختارون للسفارة أغنائهم بيانا وأوضاعهم برهانا وأحضرهم بديهة
وأقواهم ارتجالا مسوقين في ذلك بحكم أميتهم وتعذر طرق الوصلة ببلادهم
مما لم يدع للكتابة مجالاً عندهم

على أن من أغراض الخطابة فوق ما تقدم ما كان في الأملاك من خطيب
يلقى لربط أواصر المصاهرة بين العشائر وتحبيب المخطوب إليهم في المخطوب لهم
بذكر فضائل الآخرين وأنهم للآولين أهل وأكفاء

ولما كانت أغراض الخطابة على ماسلف ذات اتصال وثيق بحياة العرب
وفي المكاة السامية من نفوسهم كان الخطباء يحفلون بخطبهم ويقبلون عليها من
كل نفوسهم فيتخيرون لها من المعاني أشرفها ومن الالفاظ أفصحها لتكون
أشد وقعا على النفوس وأبعد تأثيرا في القلوب وأيقظ للهمم وأحث على العمل
فان الأذن للكلام البليغ أصغى والطبع إلى المعنى الشريف أميل والكلام إذا
صب في قالب من البلاغة محكم الصوغ جذاب الشكل عظم اقبال السامعين على
ما يرغب فيه الخطيب ان كان يحبب واشتد تقارهم عما يرغب عنه ان كان
يحذر ولو كانوا قبل استماعه على غير ما يريد وليس ذلك بالمبالغ فيه فان من
البيان اسجرا

ثم لم يفت الخطباء أن يتعودوا في خطبهم كل ما يفخمن من هذا التأثير ويزيد
في شدته كأن يقف الخطيب على شرف من الارض حسن الزى مخصوص
العمامة معتمدا على قوسه بيساره وفي يمينه عصاه وأن يكون جهر الصوت حسن
الايقاع صائب الاشارة تام الوقار إلى غير ذلك مما يباغ بالخطابة غايتها من
نفوس السامعين وبالقول نهايته في قلوب الشاهدين

وإذا كان للخطابة على حاجرة العرب اليها وقصرها على السادة الأشراف
منهم تلك الأغراض في نبليها وهذا التأثير في قوته فلا غرو أن كانت منزلتها
أشرف منزلة ومكانتها أسمى مكانة وأن كان الخطيب في كل قبيلة المرجع الذي
اليه يرجعون وعنه يصمدون لما أمده به رياسته وهداه اليه بيانه وهل لدى
رياسة ما غنى عن قول ونزوع عن بيان فما بالناس إذا كان في بدابة ليس فيها ما قد
يعنى الحضري عن الكلام وفيها ما يدعو به إلى أن يقول ويطيل وهل انغير
ذلك كان الرسل عليهم السلام مقاول خطباء ولا مرما غير هذا قال جل شأنه
عن لسان موسى عليه السلام « وأخى هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي

ردءا يصدقنى إني أخاف أن يكذبون »

وكان خطب الوصايا إلا أن الخطب أوسع دائرة وأبعد مدى فهي للمشاهد والمجامع والايام والمواسم والتفاخر والتنافر ومن الوفود في كل مهم لدى الملوك والامراء والسادة والكبراء بينما الوصايا لا تعدو قوما مخصوصين في أمر مخصوص كأن تصدر من سيد لعشيرته أو أب لبنية أو امرأة لابنتها وأكثر ما تكون عند الاحساس بدنو أجل أو توقع فرقه. وهذى نماذج للنوعين في كل ما ذكر من أغراض

فمن خطب التحريض على القتال والثبات في الميدان خطبة هانيء بن قبيصة الشيباني في قومه بكر يوم ذى قار وقد تقدمت في الايام

ومن خطب الدعوة إلى الصالح والجنوح للسلم خطبة هاشم بن عبد مناف في خزاعة وقريش حين تنافرتا إليه وقد تقدمت في المنافرات وهى بعينها شاهد على خطب التآمر بالمعروف والتناهى عن المنكر

ومن خطب العظة والاعتبار خطبة المأمون الحارثي في نادى قومه وهى كما رواها صاحب الامالى عن جماعة آخرهم أبو عبيدة قال :

قعد المأمون الحارثي في نادى قومه فنظر إلى السماء والنجوم ثم أفكر طويلا ثم قال :

أرعونى أسماكم وأصفوا إلى قلوبكم يبلغ الوعظ منكم حيث أريد طمح بالاهواء الاشر وران على القلوب الكدر وطخطخ الجهل النظر إن فيما نرى لمعتبرا لمن اعتبر . أرض موضوعة وسماء مرفوعة . وشمس تطلع وتغرب ونجوم تسرى فتعزب . وقر تطلع والنجوم وتمحقر أدبار الشهور . وعاجز مثر وحول مكدر وشاب مختضر وينفن قد غبره وراحلون لا يؤوبون وموقوفون

لا يفرطون . ومطر يرسل بقدر فيجى البشر ويورق الشجر ويطلع الثمر وينبت
 الزهر . وماء ينسج من السمخ الأير فيمدح المدر عن أفنان الخضر فيجى
 الأنعام ويشبع السوام وينمى الأنعام . إن فى ذلك لاوضح الدلائل على
 المدبر المقدر البارى المصور . يأبى العقول النافرة والقلوب النائرة أنى توفكون وعن
 أى سبيل تعمون وفى أى حيرة تهيمون وإلى أى غاية توفضون . لو كشفت
 الاغشية عن القلوب وتجلت الغشاوة عن العيون لصرح الشك عن اليقين وأفاق
 من نشوة الجبال من استولت عليه الضلالة

ومن خطب التماخر ما تقدم فى المفارقات لبيوتات العرب ومن طوالها
 خطبة النعمان بن المنذر عند كسرى وعنده وفود الائم الاخرى وقد فضلهم
 على العرب ومثلها خطب الوفد الذى بعث اليه عقب ذلك وكلمها بالعقد الفريد
 لا بن عبدربه

خطبة المطلب

ومن خطب السفارات خطبة عبد الملك بن هاشم فى وفد قريش إلى سيف
 ابن ذى يزن باليمن حين ظفر بالحبشة وأنت اليه وفود العرب لتهنئته ومدحه قال : —
 ان الله أحلك أيها الملك محملاً رفيعاً صعباً منيعاً شافعاً باذخاً وأنتك منبتا
 طابت أرومته وعزت جرثومته وثبت أصله وبقى فرعاه فى أكرم موطن
 وأطيب معدن . وأنت أبيت اللعن ملك العرب وربيعها الذى يخصب به وأنت
 أيها الملك رأس العرب الذى إليه تنقاد وعمودها الذى عليه العماد ومعقلها الذى
 تلجأ اليه العباد . سلفك خير سلف وأنت لنا منهم خير خالف فلان يخمل ذكر
 من أنت سلفه ولن يهلك من أنت خلفه . ونحن أيها الملك أهل حرم الله وسدنة
 بيته أشخصنا اليك الذى أهبجنا لك كشف الكرب الذى قد حنا فنحن وفداً لتهنئة
 لا وفد المرزئة

ومن خطب الاملاك خطبة أبي طالب بن عبد المطلب لرسول الله صلى الله عليه وسلم في تزوجه خديجة بنت خويلد رحمة الله عليها وهي من أقصدها خطب الجاهلية قال : —

الحمد لله الذي جعلنا من ذرية ابراهيم وزرع اسماعيل وجعل لنا بلدا حراما وبيتا محجوجا وجعلنا الحكم على الناس . ثم ان محمد بن عبد الله ابن أخي من لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه برا وفضلا وكرما وعقلا ومجداً ونبلا . وان كان في المال قل فانما المال ظل زائل وعاريه مسترجعة . وله في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك وما أحببتهم من الصداق فعلى ومن وصايا السادة لعشائره وصاة اكرم بن صيفي التميمي لقومه قال : —

يا بني تميم لا يفوتنكم وعظي ان فاتكم الدهر بنفسي . ان بين حيزومي وصادري لكلاما لا أجد له مواقع إلا اسماعكم ولا مقار إلا قلوبكم فتلقوه بأسماع مصغية وقلوب واعية تحمدوا مغبته . الهوى يقطان والعقل راقد والشهوات مطلقة والحزم معقول والنفس مهملة والروية مقيدة ومن جهة التواني وترك الروية يتلف الحزم وان يعدم المشاور مرشدا والمستبد برأيه موقوف على مداحض الزال ومن سمع سمع به ومصارح الرجال تحت بروق الطمع ولواعتبرت مواقع المحن ما وجدت إلا مقائل الكرام وعلى الاعتبار طريق الرشاد ومن سلك الجدد أمن العثار ولن يعدم الحسود أن يتعب قلبه ويشغل فكره ويؤثر غيظه ولا يتجاوز مضرتة نفسه . يا بني تميم الصبر على جرع الحلم أعذب من جناء ثمر الندامة ومن جعل عرضه دون ماله استهدف للذم وكلم اللسان أنكى من كالم السنان والكلمة مرهونة مالم تنجم من الفهم فاذا نجمت فهي أسد محرب أو نار تلهب ورأى الناصح اللبيب دليلا لا يجوز . ونفاذ الرأي في الحرب أجدى من الطعن والضرب

ومنها أيضا وصاة عامر بن الظرب العدواني الذي تقدمت الإشارة إليه مع
أكرم إذ قال له ترمه وقد خشوا موته . إنك سيدنا وقاتلنا وشريفنا فأجبهنا لنا شريفا
وسيدا وقائلا فقال .

يا مدثر عدوان كلتموني بغيا ان كنتم شرفتموني فاني أريتكم ذلك من
نفسى فاني اكم مثلى . افهموا ما أقول لكم .

إن من جمع بين الحق والباطل لم يجتمعها له وكان الباطل أولى به وإن الحق
لم يزل ينفر من الباطل ولم يزل الباطل ينفر من الحق .

يا مدثر عدوان — لا تشمتوا بالذلة ولا تفرحوا بالعزة فبكل عيش يعيش
الفقير مع الغنى . ومن يسر يوما يضر به . وأعدوا لكل أمر جوابه . إن مع السفاهة
الندامة والعقوبة نكال وفيها ذمامة . ولئيد العليا العاقبة . والتعود راحة لا عليك
ولانك . واذا شئت وجدت مثلك . إن عليك كما أن لك . ولما كثرت الرعب وللصبر الغلبة .
ومن طلب شيئا وجدده وان لم يجده يوشك أن يقع قريبا منه .

ومن وصايا الآباء للابناء وصاة ذى الاصبع العدواني حين احتضر لابنه
أسيد قال :-

يا بني إن أباك قد فنى وهو حى وعاش حى سئم العيش واني موصيك بما
إن حفظته بلغت فى قودك ما بلغت فاحفظ عني . ألن جانبك لقودك يحبوك
وتواضع لهم يرفعوك وابسط لهم وجحك يطيعوك ولا تستأثر عليهم بشيء
يسودوك وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم بكرمك كبارهم ويكبر على هودك
صغارهم واسمح بمالك واحم حريمك وأعزز جارك وأعن من استعان بك
وأكرم ضيفك وأسرع النهضة فى الصريح فان لك أجلا لا يهدوك وصن
وجحك عن مسألة أحد شبتا فبذلك يتم سؤدوك

ومن وصايا النساء لبناهن ما ذكره الميداني عن المفضل الضبي في المثل
«ما وراءك يا عصام» ولن نروى منه إلا محل الاستشهاد قال :
لما أرادوا أن يحملوا ابنة عوف بن محلم الشيباني الى زوجها الحارث بن عمرو
ملك كندة قالت لها أمها توصيها : —

أى بنية إن الوصية لو تركت لفصل أدب تركت لذلك منك ولاكنهما
تذكرة للغافل ونحوه للعافل ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغنى أبويها
وشدة حاجتهما اليها كنت أغني الناس عنه ولاكن النساء للرجال خالقن ولهن
خالق الرجال. أى بنية إنك فارقت الجو الذى منه خرجت وخلفت العش
الذى فيه درجت إلى وكر لم تعرفيه وقرين لم تألفيه فأصبح بما لك عليك رقيقا
ومليكا فكوني له أمة يكن لك عبدا وشيكما . يا بنية احملى عنى عشر خصما
تكن لك ذخرا وذكر الصيحة بالقناعة والمعاشرة بحسن السمع والطاعة . والتعهد
لموقع عينه والتفقد لموضع أنفه فلا تقع عينه منك علي قبيح ولا يشم منك الا
أطيب ريح والكحل أحسن الحسن والماء أطيب الطيب المفقود . والتعهد
لوقت طعامه والهدو عنه عند منامه فان حرارة الجوع ملهبة وتنغيص النوم
مغضبة . والاحتفاظ ببيته وماله والارعاء على نفسه وحشمه وعياله فان الاحتفاظ
بالمال حسن التدبير والارعاء على الحشم والعيال جميل حسن التقدير . ولا تنشى
له سرا ولا تعصى له أمرا فانك ان أفشيت سره لم تأمنى غدره وان عصيت
أمره أو غرت صدره . ثم اتقى مع ذلك الفرح ان كان ترحا والا كمتاب عنده
ان كان فرحا فان الخصلة الأولى من التقصير والثانية من التكدير . وكوني
أشد ما تكونين له اعظما يكن أشد ما يكون لك اكراها وأشد ما تكونين له

موافقة يكن أطول ما تكونين له مرافقة . واعلمى أنك لا تصلين إلى ما تحبين
حتى تؤثرى رضاه على رضاك وهواه على هوائك فيما أخطبت وكردت والله
مستبصر لك

هذا وكتب الادب ملائى بأخبار الخطباء والحكام والموصين وضاربى
الأمثال وذوى الاسجاع من السكينة والعرافين ولا محل هنا للمزيد عما سقنا
ففيه الغناء لما أردنا من نماذج على سبيل التمثيل لأنواع النثر وأقسامه فى آن .

الشعر الجاهلي

١ — أولية الشعر عامة ولدى العرب خاصه

ليس للشعر باعتباره تلك المعاني المؤثرة التي تتصل بالشعور وتعبير عن خليجات النفوس وتنساق لهوى الغرائز والميول أولية تعرف فانه بهذا المعنى يكاد يكون مخلوقا مع الانسان منذ أن هبط الى هذا الوجود مجموعة غرائز فطرية يخضع لها في كل أعماله خضوعا لا يحد منه عقل ولا يقف في سبيله فكر لان التعقل والتفكير لم يوجد إلا بعد حقب طال أمدها اكتسب الانسان خلالها من التجارب ما أوجد له عقلا بجوار الغريزة فصارت إرادته مرتكزة عليه بعد أن كانت مسخرة دون تفكير للغرائز الخافزة والميول الدافعة . ولكن ليس مما يسيغه عقل ولا تسمح به سنة أن تكون تلك المعاني قد ظهرت أول ما ظهرت فيما نسميه شعرا بالمعنى الاصطلاحي أى في قوالب محدودة من الأوزان والقوافي فان هذه القوالب في كل اللغات أثر من آثار حضارتها والحضارة لا يمكن أن تكون إلا بعد قرون طويلة تقطعها اللغة منذ نشأتها الى حيث تظهر بها أمثال هذه الآثار .

فالمعاني الشعرية وجدت حيث وجدت مطلقة الاسلوب من كل قيد وأخذت في التدوج الى أن بلغت الغاية التي نرى من قيود ثم جهلت هذه الخطوات الاولى كما جهلت سائر أوائل الاشياء . على أن العقل يكاد يجزم في لغتنا العربية أن أول خطوة خطاها شعرها كانت متمثلة في الاسجاع وبعدها كان تساوى الفواصل فيها ثم خضوع هذا التساوى شيئا فشيئا لقيسة التفاعيل وبذلك

تحقق الوزن في البيت الواحد مع اتحاد الحرف الأخير في الشطرين كما نراه في منظومات العلوم والفنون وهذا أهون أنواع الشعر . ونلا هذه الحالة التقيد بحرف القافية في الاعجاز مع التحلل منه في الصدور وفي خلال ذلك وعلى توالي القرون تنوعت الاوزان وطالت القوافي وبلغ الاقتدار على التقيد مداه حتى وصل الى الارجيز وهي أصعب أنواع الشعر . ومن هذا يفهم أن الشعر العربي لا بد له في معناه من التأثير المعتمد على الشعور وفي لفظه من التقيد بالوزن والقافية . واذا ما خلا من هذين معاً أو من أحدهما سمي نثراً فحسب أو نثراً شعرياً أو نظماً لا شعراً . فالشعر على اطلاقه هو ما عنيينا وعلى هذا القصد ذكرنا ما ذكرنا آنفاً من أن النثر أسبق منه الى الوجود .

ولما كان المعنى الشعري فطرياً تهدي اليه الطبيعة البشرية إذ لا بد منه للانسان في التسرى عن نفسه وقت الشدة والتسلى به حين الوحدة ظهر الشعر على ألسنة الامم جمعاء ولم تختص به أمة دون أخرى ولكنها لم تكن فيه سواء فكانت أكثرهن فيه قولاً أصلياً له بيئته وأوفقها له لغة . ومن ثم كانت العرب في جاهليتها من أقدر الشعوب عليه إن لم تكن أقدرها جميعاً فقد قالته رجالاً ونساء شبانا وشيباً سادة وسواداً ولم يعدم أقلهم فيه شأن الأبيات يقدمها في حاجته أو يعبر بها عن معنى في نفسه وان لم يك من الملقبين بالشعراء لأن طبيعة العيش البدوي تهدي الى الشعر وتدعو الى الفناء به .

فمن حياة بسيطة ساذجة لا شيء فيها يطفئ على الفطرة أو يमित الوجدان بل كل ما فيها ينميها ويزيد من قوتها . فالسماء صافية الرقعة متألقة الكواكب والارض منبسطة الأديم لامعة الرمال متصلة بالعائش فيها تمام الاتصال متجالية له بكل ما عليها من حيوان ونبات . الى رحلة طويلة دائمة لا يفارق العربي فيها راحته فلا يزال يسوقها وهي تقطع المفاوز والقفار بتلك الحركة

المرقصة كارجوحة الطفل لا تكاد اليد تهزها حتى ينطلق اللسان فيغنيها . كذلك هو انطلق لسانه لراحلته فلم يزل يحدوها بألحان الشعر ويرفع من ورائها عقيرته بأهازيج . ولقد قالوا إن أول ما نشأ من الأوزان الرجز وما الرجز إلا قياس رسمه في مخيلة العرب سير الأبل في الصحراء ففاض الشعر على ألسنتهم أول ما فاض بألفاظ هي وتفاعيل الرجز في الواقع سواء .

تهيات للعرب إذن منذ كانت العرب دواعي الشعر بما تهياً لهم من سلامة فطرة وملاءمة بيئة ثم كنف عيشهم ما كنفه من ضنك ومشقة وتفرد وعزلة فهرعوا اليه يتخذونه لدى الشدائد عوناً وفي الوحدة أنيساً حتى كان لحنهم وهجيراهم شأن ذوى الأعمال المتعبة والخلوة الموحشة لا غنى لهم عن الغناء به ولا محيص . ولقد ذال من مطاوعته لهم حتى صار سلسبيلاً جارياً تلك اللغة الذلول ذات الغنى الكبير في مفرداتها ومرادفاتها والتصرف الأكبر في أساليبها وتراكيبها فنبغوا فيه نبوغاً عدد من أوزانه وأطال في قوافيه وجعله في هذين الأمرين ذا منزلة لم يدانه فيها سواه ، وأنى لغيره تلك المدانة دون أن تهياً لغته في مفرداتها وأساليبها لما تهيات له لغة الضاد في التصرف البعيد البديع الذى مكن لذوى الصنعة اللفظية من الاتيان بأشياء لولاه كانت من المعجزات . وفي مقامات الحريرى من هذا الضرب فنون وألوان ، فمن مقامة تتضمن رسالة إحدى كلماتها معجمة والآخرى مهملة الى مقامة تتضمن أخرى كل كلمة فيها أحد حروفها معجم والآخر مهملة الى مقامة تتضمن رسالة تقرأ من أولها بوجه ومن آخرها بوجه الى مقامة تتضمن عبارات تقرأ طرداً ورداً فلا يغيرها عكس حروفها الى غير هذا مما ليس له نظير ولا شبهه في أية لغة أخرى . وكما كانت العرب فى جاهليتها ذات قدرة على الشعر فائقة وشاملة معاً كذلك كانت من أقدم الأمم المعروفة به . فأولية الشعر عندها تكاد ترجع الى

أوليتها وهي أمة قديمة العهد ذات صلة بفجر التاريخ . غير أن بدواتها وأميتها حالنا بينها وبين تدوينه بنقش على أثر أو كتب في كتاب ، فلم يك لها حياله إلا تلميحه بالحفظ والادكار فأخذ يطوى بطي الحقب ويذهب بذهاب الحفظة وهيئات للحفظ وحده أن يبقى معه مآثور على تلك القرون الطوال . لذلك كان الضياع حليف الشعر الجاهلي فلم يسلم لنا منه وراء قرنين قبل الهجرة شيء كما لم يسلم منه في هذين القرنين بالنسبة لما ضاع إلا القليل .

وأول مآثور عرف كان في قبائل ربيعة بنجد والعراق وبخاصة تغلب وبكر أيام حرب البسوس ومن أقدم شعرائها ويقال إنه أول من قصد القصيد والصواب أول من عرف له القصيد المهل وهو عدي بن ربيعة التغلبي أخو كليب الذي هاجت بمقتله بين القبيلتين السالفتين الحرب السابقة فكان لها في إذكاء الشعر بربيعة الأثر الكبير . ثم تحول إلى قيس عيلان وكانت شعوبها تملأ نجدا وأعلى الحجاز . ومن قبائلها عبس وذبيان وبينهما بدأت حرب داحس والغبراء وتناوات معهما الكثير فكان لها من إذكاء الشعر في قيس ما كان في ربيعة لحرب البسوس . ومن قيس انتقل إلى تميم وتميم مسعر الحروب فاستقر فيها وكانت أول نشوئها في تهامة ثم نزلت إلى شرقي نجد وبادية العراق . ولم يظهر في مدركة إلا في بطون سكنت البادية منها كهذيل وأسد وبعض كنانة وقريش وبهذا غلب الشعر على أكثر أهل البادية من مضر وربيعة كما غلب على من ساكنهم بها من نازحي قبائل اليمن القدماء كطيء وكندة وغيرهما مما تقدم بيانه في القبائل والبطون ، أما الحواضر فكانت قليلة في ذاتها وكذلك كانت قليلة الشعراء .

وإذا قلنا إن الشعر كان أقدم مما أثر منه بكثير فإنا نستند في قولنا هذا إلى العقل وإلى المآثور ، فأما إلى العقل فلا نه يأبى على الشعر الإباء كله أن يظهر

طفرة بذلك المظهر الذي كان عليه أيام حرب البسوس ، وما قصائد مهمل في وصف تلك الحرب وفي رثاء كليب أخيه إلا نتيجة حقيب طويلة درج فيها الشعر حتى تم صقاله وتعددت أوزانه واستطالت قوافيه ولا بد أن تكون تلك القصائد مسبوقة بأمثالها في العهد القريب وبشبهات لها في البعيد ، وهكذا القمقري الى عهد سحيقة كان الشعر فيها في صور المقطعات الصغار . وأما الى المأثور فلا نرى في أقدم الشعراء المروى عنهم من يقول وهو امرؤ القيس عوجا على الطلل المحيل اعلنا نبي الديار كما بكى ابن حذام

وابن حذام أقدم من امرئ القيس ولم يصل اليها من شعره شيء ولا بد أن يكون قد وقف على الاطلال وبكى الديار كما يريد أن يقف ويبكى امرؤ القيس ثم لا بد أن تكون له قصائد افتتحها بالوقوف والبكاء وصرف يقول فيها بعد الى غير ذلك من الأغراض بهذا كان يدين الشعراء كما مرى القيس للقدماء ألا ترى الى عنزة يفتح معلقته فيقول :

هل غادر الشعراء من متردم أم هل عرف الدار بعد توهم

فنحن اذا نحنزنا في دراسة الشعر الجاهلي الى القرنين السابقين للاسلام نفعل ذلك مضطرين لا نقطاع الرواية الصحيحة عما قبل هذا التاريخ لان ماروى منه أقرب الى الوضع والاختلاق ، ومن العبث التعرض له بكلام فقد أفرط القصاصون في التوغل بالشعر الى القديم حتى أوصلوه الى العرب البائدة فذهبوا اليها منه الكثير فيما ذكره عنها من أساطير ناسين أنهم روه بلغة مضر قبيل الاسلام ومحال أن تتحد ولغة عاد ، على أن ذلك ليس بالغريب عليهم وقد نسبوا الشعر الى آدم وأولاده والى الجن والملائكة والشیاطين .

تلك نبعة الشعر عامة ولدى العرب خاصة وإنا لسائقو القول بعدها على الشعر الجاهلي من حيث طبيعته وفنونه ، تستجيلة كثيرا من أحوال العرب ، تأثيره ومنزلة رجاله ، طبقات الشعراء ومنزلة اصحاب المعلقات فيهم مع السبب في تسميتها بهذا الاسم ثم منزلة المعلقات نفسها منه إن شاء الله .

٢ — طبيعة الشعر الجاهلي وفنونه

نرانا مضطرين قبل التكلم في طبيعة الشعر الجاهلي أن نسوق القول عاما في طبائع الشعر القديم كلمة حتى يمكن أن نرجع الشعر المذكور الى الطبيعة التي تلاءمه والتي اليها ينتمي

فان من الشعر ما هو قصصي ينصرف الى القصص فيذكر الحروب والابطال ولكنه لا يقتصر في ذكرها عليهما بل يمزج بهما مناداة الآلهة واستيحاءها فهو شعر اجتماعي تفنى فيه شخصية الشاعر الى حيث لا يراها الانسان ثم هو في لفظه طويل بالغ في الطول تصل القصيدة الواحدة منه الآلاف من الابيات دون أن تتقيد بلون واحد من الوزن والتقفية ، وكثيرا ما تعتمد في انشادها على الموسيقى . وهذا النوع من الشعر يلائم كل أمة في فطرتها الاولى اذا تضامت برابطة اجتماعية تصل بين أفرادها في الدفاع والاغارة وأخرى دينية توحد بينهم في العقيدة ، ولكنها تعدد من آلهتهم ومعبوداتهم كأمة اليونان في القرنين العاشر والتاسع قبل الميلاد .

ومنه ما هو تمثيلي يعتمد على الحوار المصحوب بالحركة والعمل الصادر عن كثير من الاشخاص دون اشتغال على أمثال سأل وأجاب أو قال وقلت فتري المتحاورين فيه يتحدثون وهم يغدون ويروحون يأتون من الاعمال ما يستلزمه هذا الحوار متمدنين في أقوالهم على ما هنالك من غناء وموسيقى ورقص وهو في موضوعه أوسع دائرة من القصصي لأنه يتناول القصة وغيرها ثم القصة فيه غير قاصرة على الابطال والحروب ولا مقيدة باستيحاء الآلهة وخطابها ولذلك لم يظهر في أمة قديمة إلا نتيجة لرقى عقلي كبير وحياة ديمقراطية صحيحة كأمة اليونان منذ القرن الخامس قبل الميلاد .

وهو باهو غنائى يخرج عن الدائرة الاجتماعية للقصص والتمثيل الى شخصية الفرد أولا وقبل كل شىء فلا يزال يصور نفسية الشخص وما يتصل بها من وجدان وميل ولا يفتأ صاحبه يغنى نفسه بحبه وبغضه ولذته وألمه . وهو نتيجة لرقى الشخصية الفردية وتحررها من قيود الاجتماع المسيطرة من غير رأى ومن شوائب العقيدة المشتركة والآلهة فى كل عمل . ولذلك كان الرحلة الوسطى لآخويه فى الأمم التى وجدت بها المراحل الثلاث كأمة اليونان أيضا فى القرنين السابع والسادس قبل الميلاد .

فطبائع الشعر ثلاثة ونحن اذا عرضنا لأسبابها وميزاتها نطبقها على العرب فى جاهليتها لا نجد لها تهيات إلا للشعر الغنائى فحسب . نعم كان لها ذكر قوى لا بطلانها ووصف يعرف بحروبها ولكنه لم ينهض أن يسمى شعرا قصصيا لأنها قالتها غير مطيلة فيه دون أن تنسى شخصيتها أو تستوحى آلهتها . كما كان لها حوار يظهر فى القصيدة بين عاشقين أو متخاصمين ولكنه لم ينهض كذلك أن يسمى تمثيلا ، لأن الحوار فيه على ضيق دائرته وقلته لم يتجرد من أمثال قلت وقال ولم يصحب من المتحاورين بالحركة والعمل كما لم يعتمد على ما اعتمد عليه التمثيل من رقص وموسيقى وغناء .

واذن الشعر العربى غناء كله ولكنه فى جاهليته عن طبيعة وبهشة وفى إسلامه عن محاكاة وتقليد وليس يميز العرب من ذلك ضير لأن شاعرية الأمة لا تقاس بأنواع الشعر بل بالدرجة التى بلغت إنتاجا وقدرة فى النوع الذى تهيات له والأمة العربية قد بلغت من الشعر الغنائى مبلغا لم تشاركها فيه أمة أخرى فقد قالتها فى كل عصورها فجاء فى عمومها معبرا عن الجمال الفنى المطلق الذى تنشده الإنسانية جميعا ليكون صلة بين شعوبها وأجناسها على اختلاف بيئها وعصورها كما جاء فى خصوصه مرعاة تمثل أصدق تمثيل شخصية الشعراء

وحالة البيئات وحياة الافراد والجماعات حتى انه ليهد من أصدق مصادر التاريخ على اختلاف الامكنة والعصور وحسبه أن أدى رسالته بقوة في هاتين الناحيتين وليس بعد ذلك منال .

هذه طبيعة الشعر الجاهلي فاذا قلنا طبيعته وفنونه فانما نقصد الى الفنون الداخلة في هذه الطبيعة الفنائية من نسيب وفخر ورثاء ومدح وهجاء ووصف لا الى أى نوع من النوعين الآخرين وهما القصصى والتمثيلي على أن له أبوابا أخرى ولكن هذه الابواب الستة أهم فنونه إذ هي الاصلية فيه واليها يكاد يرجع غيرها من وعيد وانذار، استعطاف واعتذار، اقتضاء واستنجاز، ملامة وعتاب الى غير هذه مما يهد الأدباء . أما الحكم والأمثال فلم تك بالكمثيرة في الشعر الجاهلي كما لم تك تأتي وحدها قصدا بل عفوا وفي ثنايا غيرها . وهذه كلمة عن كل فن من الفنون الستة متبوعة بما ذبح له .

١ - النسيب

ويرادفه التشبيب والتغزل وكلها راجعة الى المرأة في وصفها حساً ومعنى واظهار الميل اليها والكلف بحبها مع ما يتبع هذا من التألم لفرافها والتشوق الى لقاءها الى غير ذلك مما يدل على شدة الصباية وفرط الوجد وتصورها في كل ذي صلة بها أو مشابهة لها من الديار والآثار والنبات والحيوان والرياح والبروق . وقد شغل النسيب في الجاهلية مكانا عالياً من الشعر ولا يبعد أن يكون أقدم فنونه لقدم علاقة الرجل بالمرأة ولأن حياة البداوة تجعل مشاركتها له مجسمة بارزة ، وهذا الى ما للجمل والارتحال الدائبين بتقلب الفصول والايام من خلق أسباب الهوى والهيام لما فيهما من قرب وفراق وتواصل وبعاد . ولذا كثر في العرب العشاق المتيمون أمثال المرقش الاكبر من بكر وائل

واسمه عوف بن سعد وعبد الله بن العجلان من نهد من قضاة ومالك بن الصمصامة من بني جعدة ومسافر بن أبي عمرو من قریش ثم عروة بن حزام العذري وقد أدرك الاسلام فهو لاء ولهم أمثال وأشباه عاشوا للمرأة وفي المرأة ما توا وخلص لها شعرهم كما خالص لها حبيبهم ثم لم تعد من غيرهم الكثير من الاشعار ان لم يكن قصدا وبالذات في مطالع القماء وكثيرا ما كانت تراجع الغرض منها أو تزيد ويحسن أن نختص تلك المطالع باسم التشبيب وهذا فرق ما بينه وبين التغزل والنسب أما الفرق بين هذين فعلى تعذر حده يمكن أن يقال إن التغزل ما عمد فيه الشاعر الى وصف المرأة مدفوعا الى ذلك بهتيدة أو مسوقا فيه بصناعة والنسب ما توجه فيه الى ذكر الصباقة والوجد وألم الهوى والفراق صادرا في ذلك عن وجدان وشعور لا يكونان الا في المحبين المغرمين ومن هنا كانت كلمة النسب أنسب الكلمات الثلاث لاطلاقها على هذا الفن من الشعر كما اخترناه .

نماذجه

قال المرقش الأكبر وهو من الشعراء المتيمين

سرى ليلا خيال من سليمى فأرقنى وأصبحاني هجود
فبت أدير أمرى كل حال واذكر أهلها وهم بعيد
على أن قد سما طرفى لنار يشب لها بذى الارطى وقود (١)
حواليها منها بيض التراقى وآرام وغزلان رقة ود
نواعم لا تعالج بؤس عيش أو انس لا تروح ولا ترود

(١) ذو الارطى مكان والارطى شجر

يرحن معا بطاء المشى بدءا عليهن المجاسد والبرود (١)

سكن ببلدة وسكنت أخرى وقطعت المواق والمهود

فما بالي أفي ويخان عهدي وما بالي أصاد ولا أصيد

وقال في ابنة عمه أسماء وهي التي مات بحبها

أغالبك القلب اللجوج صباية وشوقا إلى أسماء أم أنت غالبه

يهم ولا يعيا بأسماء قلبه كذلك الهوى أمراره وعواقبه (٢)

أيلحى امرؤ في حب أسماء قد نأى بغم من الواشين وازور جانبه

وأسماء هم النفس إن كنت عالما وبأدى أحاديث الفؤاد وغائبه

إذا ذكرتها النفس ظلت كائنني يززعني قفقفاف ورد وصالبه (٣)

وقال عروة بن حزام العذري وهو من المخضرمين من قصيدة طويلة في ابنة

عمه عفراء

على كبدي من حب عفراء قرحة وعيناي من وجد بها تكفان

فعفراء أرجى الناس عندي مودة وعفراء عن المعرض المتواني

فياليت كل اثنين بينهما هوى من الناس والانعام يلتقيان

فيفضى حبيب من حبيب لباة ويرعاها ربي فلا يريان

هوى ناقتي خلفي وقدامي الهوى واني واياها لمختلفان

يقول لي الاصحاب إذ يهزلوني أشوق عراقى وأنت يمانى

تحمات من عفراء ما ليس لي به ولا للجبال الراسيات يدان

(١) جمع مجسد كبرد الثوب يلي الجسد وجمع برد كقفل كساء مخطط أو

كسبة يلتحف بها واحدتها بهاء (٢) جمع مرضد الحلو (٣) الورد بكسر الواو والحمى

أو قفقفافها ذو الرعدة منها يذهب ويجيء فإذا استمر فهو الصالب

كان قطاة علقت بجناحها على كبدى من شدة الخفقان
 جعلت اعراف اليمامة حكمة وعرف نجدان هما شفياني (١)
 فقالا نعم نشفى من الداء كله وقاما مع العواد يبتدران
 فما تركا من رقية يعلمانها ولا سلوة الا وقد سقياني
 وما شفي الداء الذى بي كله ولا ذخرا نصحا ولا الوانى (٢)
 فقالا شفاك الله والله مالنا بما ضمنت منك الضلوع يدان

٢ — الفخر

هو تمجيد الشاعر بنفسه وقومه وذكر ما آثرهم ونفاخرهم وأكثر ما تناول
 الفخر تناول الشجاعة والنجدة والبأس والقوة وإجارة الجار ومنع الحریم واکرام
 الضيف وإيواء الطارقين وهى خير ما كانت تقدر العرب من صفات وأكثر
 ما كان يظهر فى حياتهم ويتطلبه عيشهم. وأنسب ما كان يقع الفخر كان يقع من
 السادة الاشراف والابطال الفرسان ومن جرى مجراهم من الصعاليك المغيرين
 فمن السادة زهير بن جناب الكلبى من قضاة والحصين بن الحمام من قيس والمهمل
 بن ربيعة وعمرو بن كلثوم من تغلب والافوه الاودى من مذحج وعبد يثوث
 من كهيلان وعامر بن الطفيل من قيس وأبو قيس بن الاءسلت من الاءوس
 وقيس بن عاصم من تميم وقد أدرك الاسلام ومن الفرسان علقمة الفحل من
 تميم وعنترة العبسى وحاتم الطائى وسلامة بن جندل التميمى وقيس بن الخطيم
 الاءوسى والاءاب العجلى وعمرو بن معديكرب الزبيدى ثم أبو محجن الثقفى
 وزيد الخيل الطائى وقد أدرك الاسلام ومن الصعاليك المغاوير عروة بن الورد
 العبسى وتأبط شرا القيسى والسليك بن السلاءكة التميمى

(١) الاول رباح بن عجلة والثانى الاءباق السعدى (٢) ألى قصر من باب نصر

نماذج

قال عمرو بن الاطنابة أحد بني الخزرج يفتخر بقومه وهو من ملك
الحجاز في الجاهلية (١)

اني من القوم الذين اذا انتدوا بدعوا بحق الله ثم النائل (٢)
المانعين من الخنا جاراتهم والحاشرين على طعام النازل (٣)
والخالطين فقيرهم بغنيهم والبازلين عطاءهم للسائل
والضاربين الكباش يبرق بيضه ضرب الممجهج عن حياض الابل (٤)
والقاتلين لدى الوغى أقرانهم إن المنية من وراء الوائل (٥)
والقائلين فلا يعاب كلامهم يوم المقامة بالقضاء الفاصل
خزر عيونهم إلى أعدائهم يمشون مشى الأسد تحت الوابل
ليسوا بأنكاس ولا ميل إذا ما الحرب شبت أشعلوا بالشاعل (٦)
وقال حصين بن الحمام المري في الصبر

ولما رأينا الصبر قد حيل دونه وأن كان يوم ذا كواكب مظلماً
صبرنا وكان الصبر منا سجية بأسيافتنا يقطعن كفاً ومعضماً
نفلق هاماً من رجال أعزه علينا وهم كانوا أعق وأظلماً
ولما رأيت الود ليس بنافعي عمدت إلى الامر الذي كان أحزماً
فلست بمبتاع الحياة بذلة ولا مرتق من خشية الموت سالماً
وقال حاتم الطائي في الكرم وما اتصف به من مكارم الاخلاق
فاني لا آلو بمالي صنيعه فأوله زاد وآخره ذخ

(١) الاطنابة المظلة وهي أمه (٢) انتدوا اجتمعوا (٣) الخنا الفحش
(٤) الزاجر الابل بقول هيج هيج (٥) الوائل طالب النجاة (٦) جمع نكس كقرد
الضعيف ، جمع أميل الأعزل

يفك به العاني ويؤكل طيبا وما إن تعريه القداح ولا الخمر (١)
ولا أظلم ابن العم أن كان اخوتي شهودا وقد أودى باخوته الدهر
غنيئا زمانا بالتصعلك والغنى وكلا سقانا به كئاسيهما العصر (٢)
فما زادنا بأوا على ذي قرابة غنانا ولا أزرى بأحسانا الفقر (٣)
وما ضر جاريا ابنة العم فاعلمى يجاورني ألا يكون له ستر
بعين عن جارات قومي غفلة وفي السمع منى عن حد يشهم وقر

وقال عتيبة بن بجير المازني من بنى الحارث بن كعب في ايواء الطارق

ومستنجح بات الصدى يستنجد به إلى كل صوت فهو في الرحل جانح (٤)
فقلت لاهلي ما بغام مطية وسار أضافته الكلاب النوايح (٥)
فقالوا غريب طارق طوحت به متون الفيافي والخطوب الطوارح
فقلت ولم أجم مكانى ولم تقم مع النفس علت البيخيل الفواضح
وناديت شبلا فاستجاب وربا ضمنا قري عشر لمن لانصافح
فقام أبو ضيف كريم كأنه وقد جد من فرط الفكاكة مازح
إلى جذم مال قد نم كئنا سوامه وأعراضنا فيه بواق صحاح
جعلناه دون الذم حتى كأنه اذا عد مال المكثرين المنايح (٦)
لنا حمد أرباب المئين ولا يرى الى بيتنا مال مع الليل رائح
ومن أحسن ما قيل في الصعلكة قول عروة بن الورد العيسى المعروف بعروة الصعاليك
لما الله صعلوكا اذا جرن ليله مصافى المشاش آلفا كل مجزر (٧)

(١) العاني الأسير (٢) غنيئا أقننا (٣) البأ والتكبر (٤) الجانح المائل
(٥) البغام صوت في حنين (٦) المنايح جمع منيحة وهي الناقة أو الشاة تدفع
إلى الجار ينتفع بلبنها مادام بها لبن (٧) المشاش بضم الميم رأس العظم ومصافيه
أخذه كله

يعد الغنى من نفسه كل ليلة أصاب قراها من صديق ميسر
 ينـام ثقيلاً ثم يصبح قاعداً يحث الحصى عن جنبه المتعثر (١)
 يعين نساء الحى ما يستهنه فيضحى طليحاً كالبعير المحسر (٢)
 ولكن صعلوكاً صفيحة وجهه كضوء سراج القابس المتنور
 مطلاً على أعدائه يزجرونه بساحتهم زحر المنيع المشهر (٣)
 وان بعدوا لا يأمنون اقترابه تشوف أهل الغائب المنتظر
 فذلك إن يلق المنية يلقه ——— حميدا وإن يستغن يوما فأجدر
 يريح على الليل أضـرسياف ماجد كريم ومـالى سارحا مال مقتر
 ٣ — الرثاء

هو بكاء الميت وتعدد محاسنه وصفاته في ثوب من التمتع والحسرة والتلهف
 والاسى مع استعظام المصيبة واستشعار الجزع إن كان الميت من ذوى الرياسة
 والاقدار وقد كان من عادة القدماء فيه أن يضربوا الأمثال بمن سلف من الأنبياء
 والملوك والأمراء والعظماء وبما هلك من الوعول المعتمصة بقنن الجبال والاسود
 الخادرة فى ثنايا الغياض وحرر الوحش الضاربة فى مجاهل القفار ثم بالنسور
 والحيات ذات البأس القوى والعمر المديد وأن يخلوه من التشبيب الذى اعتادوا
 أن يفتتحوا به القصيد فى سائر فنون مآداه وهو فى الجاهلية ذو شأن كبير
 لما كان بها من حروب ذات بال لا تفتأ تغتال الشجعان وتلتهم الأبطال وقد
 شاركت النساء فيه الرجال أكثر مما شاركنهم فى سائر الأنواع لأنهن أشجى
 قلوباً وأشد جزعاً لما ركب فى طباعهن من رقة العاطفة وضعف الاحتمال ولعل
 أول من أكثر فيه وأطال المهمل فى رثائه الكليب أخيه ومن مشهورات المراتى

(١) يحث يفرك (٢) الطليح المعى والمحسر ساقط الوبر من الأعياء

(٣) المنيع القدح لا نصيب له

من النساء قصائد الخنساء في أخويها معاوية وصيخر ولا سيما الأخير على أن هذا الباب قد عم وفاض حتى لم يختص به شعراء كما هي الحال في غيره من الابواب لان المآرت شامل والمصيبة على تحريك النفوس بالبكاء ذات قوة واقتدار .

نماذج

من أقدم المراثي وأجودها ما كان من مهلهل في أخيه كليب ومن أدها على استفظاع المصيبة قوله

كليب لاخير في الدنيا ومن فيها	اذ أنت خليتها فيمن يخليها
كليب أى فقى عز ومكرمة	تحت السفاسف إذ يعلوك سافيا (١)
نعى النعاة كليباً لى فقلت لهم	مالت بنا الارض أوزالت رواسيها
الحزم والعزم كانا من صنيعته	ما كل آلائه يا قوم أحصيتها (٢)
القائد الخيل تردى فى أعتتها	زهوا إذا الخيل لجت فى تاديبها (٣)
من خيل تغلب ما تلقى أسنتها	الا وقد عضبوها من أعاديها
يهزهزون من الخطى مدحجة	كمتا أنا ييبها زرقا خواليها
تروى الرماح بأيدينا فنوردها	بيضا ونصدرها حمرا اعاليها
ليت السماء على من تحتها وقعت	وانشقت الارض فانجابت بمن فيها
لا أصلح الله منا من يصالحكم	ما لاحت الشمس فى اعلى مجاريها

ومن جيد الرثاء مرثي الخنساء بنت عمرو بن الشريف السامي في أخويها معاوية وصيخر فمن مراثيها في معاوية قولها

(١) السفاسف جمع سفسف وهو التراب تسفيه الرياح (٢) جمع ألو كدلو العطية

(٣) تردى كترمى ترجم الارض بحوافرها

أريق من دموعك واستفيقي وصبرا ان أطقن وان تطيقي
 وقولي إن خير بنى سليم وفارسها بصحراء العقيق
 ألا هل ترجعن لنا الليالي وأيام لنا بلوي الشقيق
 وإذا نحن الفوارس كل يوم إذا حضروا وفتيات الحقوق
 وإذا فينا معاوية بن عمرو على أدماء كالجمل الفتيق (٢)
 فبكيه قد أودى حميدا أمين الرأي محمود الصديق
 فلا والله لا تسلاك نفسى لفاحشة أتيت ولا عقوق
 ولكنى رأيت الصبر خيرا من النعلين والرأس الخليق (٣)
 ومنها فى صخر قولها

أعنى جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندي
 ألا تبكيان الجريء الجميل ألا تبكيان الفتى السيدا
 طويل النجاد رفيع العجا دساد عشيرته أهدا
 إذا القوم مدوا بأيديهم إلى المجد مد إليه يدا
 فنال الذى فوق أيديهم من المجد ثم مضى مصعدا
 يكلفه القوم ماعا لهم وان كان أصغرهم مولدا
 ترى الحمد يهوى إلى بيته يري أفضل الكسب أن يحمدا
 وإن ذكر المجد ألفيته تآزر بالمجد ثم ارتدى
 وقال أبو ذؤيب الهذلى وتتابع له بنون قيل ثمانية وقيل عشرة وقيل
 ملكوا بالطاعون والصواب التابع

(١) كمت حمر فى قنوء (٢) الفتيق الضيخم (٣) كان من عادة النساء
 حلق الرأس وتعليق النعلين حزنا .

أمر المنون وريبتها تتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع
 قالت أميمة ما لجسمك شاحبا منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع (١)
 أم ما لجسمك لا يلائم مضجعا إلا أقض عليك ذاك المضجع
 فأجبتها أما لجسمي أنه أودى بنى من البلاد فودعوا
 أودى بنى فأعقبوني حسرة بعد الرقاد وعبرة ما تقلع
 سبقوا هوى واعنقوا لهواهم فتخرموا ولكل جنب مصرع
 فغبرت بعدهم بهيش ناصب وإخال أنى لاحق مستتبع (٢)
 ولقد صرحت بأن ادافع عنهم وإذا المنية أقبلت لا تدفع
 وإذا المنية انشبت اظفارها الفيت كل تيممة لا تنفع
 فالعين بعدهم كان جفونها سمات بشوك فهي عور تدمع (٣)
 وتجلى للشامتين أريهم أنى لرب الدهر لا اتضعضع
 حتى كائن للحوادث مروة بصفا المشقر كل يوم تفرع (٤)
 لا بد من تلف مقيم فانتظر بأرض قومك أم بأخرى المضجع
 ولقد أرى أن البكاء سفاهة واسوف يولع بالبكا من يفجع
 وليأتين عليك يوم مرة ييكى عليك مقنعا لا تسمع
 والنفس راغبة إذا رغبتها وإذا ترد إلى قليل تقنع
 كم من جميعى الشمل ملتئم الهوى كانوا بهيش ناعم فتصدعوا

(١) أهملت نفسك ولبست المبتذل من الثياب (٢) غبرت بقيت ومضيت
 فهو من الاضداد (٣) سمات فقئت (٤) المروة حجر أبيض براق والصفاء
 واحده صفاء وهى الحجر الصلد الضخم والمشقر الجبل تضرب حجارتها إلى
 الشقرة.

فلئن بهم فجع الزمان وريبه إني بأهل مودتي لمنجع
وهي طويلة ولا مكنه بعد هذا أخذ يضرب الامثال بما لم يترك الموت من أنواع
الوحوش ذات القوة والاعتصام

٤ - المدح

وطريقه التنويه بنضائل الممدوح والتعريف بصفاته اشادة بذكره ورفعها
لشأنه سيان في ذلك وصفه على سبيل العموم والاجمال بأهميات النضائل كالشجاعة
والعفة والعدل والعقل أو تخصيصه على سبيل التفصيل بما هو به أشبه وله أميز
كلاقدام والرأي في القائد والكرم والمساواة في السيد إلى غير ذلك من الصفات
الانفسية اللائقة التي ليس للمادح أن يتجاوزها إلى غيرها من الجسمية كالجمال
أو العرضية كالغنى لإلزامها وقاصدا . على هذا كان مدح العرب في جاهليتهم
ثم إن ما ركب في نفوسهم من عزة وأنفة وإباء وكرامة جعلهم يضيقون دائرة
المدح فلم يتعدوا فيه لدانهم وذوي الرياسة من عشائهم غير أن السؤال بالمدايح
وطالب الاستجداد بالشعر لم يلبث أن ظهر فيهم آخر عهدهم فكان منهم من
تكسب بمدحه في ترفع كزهير أو تنزل كالأعشى أو بين بين كالأناقرة ولكن
أله هؤلاء ولو أنهم شهبوا وبعد صيتهم لم تخرج بالمدح في جملة عما رسمنا

نماذجه

قال المسيب بن عاص وهو من معاصري طرفة بمدح مالك بن سلمة الخير القشيري
ولقد رأيت الفاعلين وفعلهم ولذي الرقبة مالك فضل
كفاه مخلفه ومثله وعطاؤه متخرق جزل (١)
بهب الجياد كأنها شبيب جرد أطار نسيلها البقل (٢)

(١) متخرق نافذ وجزل عظيم (٢) جمع عسيب الجريدة لاخوص فيها
ونسيل الخيل شعرها والبقل يطيره من الشبع به

والضامرات كأنها بقر تقرو دكادك يشها الرمل (١)
والدهم كالعبدان آزرها وسط الاشاء مكم جعل (٢)
وإذا الشمال حدث قلائصها رتكا فليس لملك مثل (٣)
للضيف والجار الغريب ولا حلفل التريك كأنه رأل (٤)
ولقد تناولني بنائله فأصابني من ماله سيجل (٥)
متبعج التيار ذو حبيب مغرورب تياره يعلو (٦)
فلا تشكرن فضول نعمته حتى أموت وفضله فضل

ولزهير في هرم بن سنان المرى وبيته مدائح سارت بها الامثال ومن ذلك قوله
إذا السنة الحمراء بالناس أجهجت ونال كرام المال في الجحرة الاكل (٧)
رأيت ذوى الحاجات عند بيوتهم قطينا لهم حتى إذا نبت البقل (٨)
هنالك إن يستخبوا المال يخبلوا وإن يسألوا يعطوا وإن يسروا يغلوا (٩)
وفيهم مقامات حسان وجوهها وأندية ينتابها النول والنعل
وإن جئتهم ألفيت حول بيوتهم مجالس قد يشفى بأحلامها الجهل
وإن قام فيهم قائم قال قاعد رشدت فلا غرم عليك ولا خذل
على مكثريهم حق من يعترهم وعند المقلين الساحة والبذل

(١) تقرو تتبع والدكادك المرتفعات جمع دكادك (٢) النخل الصغير واحدته
أشاعة والمكم ذو الاكام والجعل الكثير (٣) الرتك تقارب الخطأ (٤) الرأل
ولد النعام والتريك المتروك (٥) السجل الدلو العظيمة (٦) متبعج التيار منفرجه
والحدب الارتفاع ومغرورب دناد لا ينقطع سيله (٧) الجحرة كنبقة السنة
الشديدة المجذبة (٨) جمع قاطن المقيم (٩) إن يستقرضوه يقرضوه، إن يسروا
يلعبوا الميسر

فما كان من خير أتوه فانما توارثه آباء آبائهم قبل
 وهل ينبت الخطى إلا وشيجه وتغرس إلا في منابتها النخل (١)
 وقال الأعشى يمدح الأسود بن المنذر أخا النعمان من قصيدة طويلة
 والخطاب للناقة

لا تشكى الى وانتجى الاسود أهل الندى وأهل الفعال
 فرع نبع يهتز في غضن المجذغزير الندى شديد المحال (٢)
 عنده البر والتقى وأسا الصدع وحمل للمعضلات الثقال
 وصلات الارحام قد علم الناس وفك الاسرى من الاغلال
 وهو ان النفس الكريمة للذكور إذا ما التقت صدور العوالي
 أريحى صلت يظل له القوم م ركودا قيامهم للهلل
 ان يعاقب يكن غراما وان يط جزىلا فانه لا يبالى

ومن مدائح النابغة للنعمان وفيها اعتذار واستعطاف

أتانى أبيت اللعن أنك لمتنى وتلك التى أهتم منها وأنصب
 فبت كائن العائدات فرشن لى هراسا به يهلى فراشى ويقشب (٣)
 حلفت فلم أترك لنفسك ريمة وليس وراء الله للمرء مذهب
 لئن كنت قد بلغت عنى وشاية لمباغك الواشى أغش وأكذب
 واسكننى كنت امرأ لى جانب من الارض فيه مستراد ومذهب
 ملوك واخوان إذا ما أتيهم أحكمكم فى أموالهم وأقرب
 كفعلك فى قوم أراك اصطنعتهم فلم ترهم فى شكر ذلك أذنبوا
 فلا تتركنى بالوعيد كأننى إلى الناس مطلى به القار أجرب

(١) الخطى شجر الرماح وشيجه عرقه (٢) الفضن الثنى (٣) المراسن
 الشوك ويقشب يخاط

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب
فانك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منها كوكب
ولست بمستبق أخا لانامه على شعث أى الرجال المهذب
فان أك مظلوما فعبد ظالمته وان تك ذا عتي فثلك يعتب
هـ - الهجاء

ويكون على عكس المديح بتجريد المهجوع من الفضائل والصفات المرغبة
كما يكون بوصفه بالردائل الشائنة والاولصاف المنفرة وأشدّه ما وقع بالموازنة
والتفضيل . ولم يتجاوز هجاء الجاهليين القبائل إلى الافراد ولا العف من القول
إلى الاذاع إلا حيث صار الشعر آلة للتكسب عند بعض الشعراء وأصبح من
الحتم عليهم أن يهجوا ليخيفوا أو ينتقموا وأن يخرجوا في هجوعهم من القبائل
إلى الاشخاص متتهكمين بأقوالهم سياج العفة والاعتدال وعل أول من عرف
بذلك الاعشى ثم جاء بعده الخطيئة من المخضرمين فأفرط وزاد حتى انه لم يهف
عن هجوع نفسه بما لا يرضى أن يهجوه به انسان وكذلك فعل مع أمه وأبيه
غير أن ذلك لم يدنس العصر الجاهلى كله لقصره كما تقدم على آحاد

نماذجه

قال بشر بن أبي خازم الاسدى يهجو أوس بن حارثة بن لام الطائي
ألا أبلغ بنى لام رسولا فبئس محل راحلة الغريب
إذا عقدوا لجار أخفروه كما غر الرشاء من الذنوب (١)
وما أوس ولو سودتموه بمخشي العرام ولا أريب (٢)
أتوعدني بقوهك يا بى سعدى وذلك من ملات الخطوب

(١) الرشاء حبل الذنوب وهى الدلو (٢) العرام كغراب الحدة والشدة

وحولى من بنى أسد عديد مبن بين شبان وشيب (١)
 هم ضربوا قوائس نخيل حجر بجانب الرده فى يوم عصيب (٢)
 وهم تركوا عتيبة فى مكر بطعنة لألف ولا هيوب (٣)
 وهم تركوا غداة بنى نمر شريحاً بين ضبعان وذيب (٤)
 وهم وردوا الجفار على تميم بكل سميدع بطل نجيب (٥)
 وأفلت حاجب تحت العوالى على مثل المولعة الطلوب (٦)
 وحى بن كلاب قد شجرنا بأرماح كاشطان القليب (٧)
 إذا ما شمرت حرب سمونا سموالزل فى العطن الرحيب (٨)
 — وعلى هذا العز الوطيد لبنى أسد يقول عبيد بن الأبرص الأسدى
 لا مريء القيس بعد قتل قومه لأبيه يهجوّه فى شعر بالغ من الاستخفاف به
 وتهديده

يا ذا الخوفنا بقة — ل أبية إزالا وحيننا
 أزعمت أنك قد قتلت سراتنا كذبا ومينا
 لوما على حجر بن أمم قطام تبكى لاعلينا
 إنا إذا عض الثما ف برأس صعدتنا لوينا (٩)

(١) المبن المقيم (٢) القوائس أعالي الرءوس وحجر والد امرئ القيس
 (٣) عتيبة بن الحارث طعنه ذؤاب الأسدى والألف البطىء والهيوب الرديد
 (٤) شريح يظهر أنه من سادات نمر (٥) الجفار ماء لقيم (٦) حاجب بن زرارة
 والمولعة العقاب والطلوب الشديدة الطلب للصيد (٧) شجرنا دفعنا وفرقنا
 والقليب البرء الاشطان حبالها واحدها شطن (٨) جمع بازل وهو من بلع التاسعة
 من الابل (٩) الثفاف خشبة تقوم بها الرماح والصعدة القناة

نحمى حقيقةنا وبه ض القوم يسقط بين بيننا
 هلا سالت جموع كندة إذ توالوا أين أيننا
 أيام نضرب هامهم بسواتر حتى انحنينا
 وجموع غسان الملو لكأتينهم وقد انطوينا (١)
 لحقا أيا طلمهن قد علجن أسفارنا وأيننا (٢)
 ولقد صلقن هوازنا بنو اهل حتى ارتوينا (٣)
 نعليهم تحت الضبا ب المشرفي إذا اعترينا
 نحن الالى فاجمع جموعك ثم وجههم اليينا
 وأعلم بأن جيا دنا آين لا يقضين ديننا
 ولقد أبجنا ما حميت ولا مبيح لما حمينا
 هذا ولو قدرت عليه يك رماح قومي ما انتهيينا
 حتى تنوشك نوثة عاداتهم إذا انتوينا

وقال الخطيئة وهو من المخضريين يهجو بني بهدلة ورئيسهم الزبرقان بن بدر
 ويمدح بني عمهم آل شماس وسيدهم بغيض بن عامر تلى سبيل المناظرة وهو من
 أوجع الهجاء وبخاصة بين الاقربين وكان نزيبا عند الاولين فأهملوا زمرة
 فتحول إلى هؤلاء فبالغوا في اكرامه قال :

ألا أبلغ بني عوف بن كعب فهل حى على خاق سواء
 عطاردها وبهدلة بن عوف فهل يشفى صدوركم الشفاء
 ألم ألك نائيا قد عوتمونى فجاء بي المواءم والدعاء
 ألم ألك جاركم فتركتمونى الكلي فى دياركم عواء

(١) الضميران للخيال (٢) الا ياطل الخواصر (٣) الصفاق الضرب

على الهامة

وَأَنْتِ الْعِشَاءُ إِلَى سَبِيلِ أَوِ الشَّعْرِ فِطَالُ بِي الْأَنْهَاءِ (١)
 أَلَمْ أَلْكَ جَارَكُمْ وَرَيْكُونَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ الْمَوَدَّةَ وَالْإِخَاءَ
 وَلَمْ أَنْ أَتَيْتُكُمْ أَيْتُمْ وَشَرَّ مَوَاطِنِ الْحَسْبِ الْإِبَاءَ
 وَلَمْ أَنْ أَتَيْتُكُمْ حَبُونِي وَفِيكُمْ كَانَ لَوْ شِئْتُمْ حَبَاءَ
 وَلَمْ أَنْ مَدَحْتَ الْقَوْمَ قَلَمٌ هَجَوْتُ وَهَلْ يَحُلُّ لِي الْمَهْجَاءَ
 فَلَمْ أَشْتُمْ لَكُمْ حَسْبًا وَلَا كُنْ حَدَثْتُ بِحَيْثُ يَسْتَمِعُ الْحَدَاءَ
 فَلَا وَأَيُّكَ مَا ظَلَمْتُ قَرِيعَ بَأَنْ يَبْنُوا الْمَكَارِمَ حَيْثُ شَاءُوا
 وَلَا وَأَيُّكَ مَا ظَلَمْتُ قَرِيعَ وَلَا عَنَفُوا بِذَلِكَ وَلَا أَسَاءُوا
 فَأَبْتُوا إِلَّا أَبَالَكُمْ عَلَيْهِمْ فَانْ دَلَامَةَ الْمَوْلَى شَقَاءَ
 وَإِنْ أَبَاهُمْ إِلَّا دَنَى أَبُوكُمْ وَإِنْ صَدَّوْهُمْ مِنْكُمْ بَرَاءَ

٦ — الوصف

معناه الكشف والاعطاف وأبلغه ما قلب السمع بصرا والشعر إلا أقله راجع
 إليه فهو باب في عمومته واسع النطاق والكنهه قصر في عرف الأدباء على غير ما
 اندرج من أوصاف تحت غيره من أبواب. وقد طرقة العرب قديما في كل ما
 شملته ياديتهم وتناولته حاجاتهم من أرض وسمااء واحتداث جوار والوان نبات
 وحيوان يدب على الأرض وطير يصعد في الهواء والكنههم تفاضلوا فيه كما
 تفاضل الناس في سائر الاشياء فمنهم من أجاد في كثير من الأوصاف وان غلبت
 عليه الإجادة في بعضها كما مرى القيس ومنهم من قصرت إجادته على وصف
 شيء دون غيره كابي داود الأيادي وطفيل الغنوي والنابعة الجعدي في نعت
 الخيل وكطرفة بن العبد وأوس بن حجر في نعت الأبل وان كان أكثر العرب

يجيد وصفها وكالشماح في وصف الحجر الوحشية والقسى وكالاعشى في وصف
الحجر وهكذا ومن ثم عرف فريق من الشعراء باسم الشعراء الوصافين كهؤلاء .
نماذج -

قال التمر بن تواب يصف أبدال الشيب

أعمرى لقد أنكرت نفسي ورابنى	مع الشيب أبدالى التى أتبدل (١)
فضول أراها فى أديمى بعد ما	يكون كفاف اللحم أوهو أفضل (٢)
كأن محطا فى يدى حارثية	صناع علت منى به الجلد من عل (٣)
وقولى إذا ما غاب يوما بعيرهم	يلاقونه حتى يؤب المنخل (٤)
وأضحى ولم يذهب بعيرى غربة	وأشوى الذى أشوى ولا أتحمل (٥)
وظلهمى ولم أكسر وأن ظميتى	تلف بنىها فى البجاد وأعزل (٦)
ودهرى فيكفينى القليل وأنى	أؤوب إذا ما أبت لا أعمل
وكنت صفى النفس لا شىء دونه	فقد صرت من إفصا حبيبى أذهل
بطيء عن الداعى فليست بأخذ	اليه سلاحى مثل ما كنت أفعل
تدارك ما قبل الشباب وبعده	حوادث أيام تضر وأغفل
يرد الفتى بعد اعتدال وصحة	ينوء إذا رام القيام ويحمل (٧)
يود الفتى طول السلامة والبقا	فكيف ترى طول السلامة يفعل
دعاني الغواني عمهن وخلتنى	لى اسم فلا أدعى به وهو أول

(١) جمع بدل وهى التغيرات (٢) كفاف اللحم أى مثله وهو أى اللحم
(٣) حط الجلد صقله بالمحط وهو حديد لذلك (٤) يقصد المنخل الشاعر ويضرب
المثل بعدم أوبته (٥) أضحى أبقى مقيما فى الضحاء (٦) الظلم العرج والبيجاد
اللحاف (٧) ينوء يقوم فى ثقل

وقال المرقش الأء كبر يصف فرسا

غدونا بضاف كالعسيب مجال طويناه حتى عاد وهو ملوح (١)
 أسيل نبيل ليس فيه معابة كيت كلون الصرف أرجل أقرح (٢)
 على مثله تأتي الندى مخايلا وتعب سرأ أى أمريك أفلح
 وتسبق مطروداً وتلحق طاردا وتخرج من غم المضيق وتخرج
 تراه بشكات المدجج بعدما يقطع أقران المغيرة يجمع (٣)
 يجم جوم الحسى جاش مضيقه ويردى به من تحت غيل وأبطح (٤)
 شهدت به فى غارة مسطرة يطاعن أولها سواء ويطرح (٥)

وقال الشماخ بن ضرار يصف قوسا

تخيرها القواس من فرع ضالة لها شذب من دونها وحزائز (٦)
 نمت فى مكان كنها فاستوت به وما دونها من غيلها متلاحز (٧)
 فما زال ينجو كل رطب ويابس وينغل حتى نالها وهو بارز (٨)
 فأنهى عليها ذات حد غرابها عدولا وسطا العضاه مشاوز (٩)

(١) الضافى الطويل الذيل والمجال ذو الجمل والعسيب الجريدة لا خوص
 فيها وملوح مغبر من الشمس (٢) الأسيل الطويل والنبيل الغليظ والصرف الخمر
 خالصة غير ممزوجة والأرجل المحجل والأقرح الأغر (٣) الشكات جمع شكة
 وهى السلاح والمدجج المستور فى سلاحه والمغيرة الخيل (٤) الحسى البئر ويجم
 يفيض وجاش فار ويردى يسير الرديان والغيل الماء الجاري والأبطح المسيل
 فيه دقاق الحصا (٥) المسطرة الممتدة (٦) الضالة السدرة البرية والشذب العيدان
 والخرايز قطع الشجر (٧) من غيلها فى منبتها ومتلاحز متضايق داخل
 (٨) ينجو يقطع وينغل يدخل (٩) ذات الحد القاس وغرابها حدها
 والعضاه جمع عضاهة شجر والمشاوز المشاكس

فلما اطمأنت في يديه رأى غنى أحاط به وازور عمن يحاوز (١)
فأمسكها عامين يطلب درأها وينظر منها ما الذي هو غامز (٢)
أقام الثقاف والطريدة متنها كما أخرجت ضغن الشموس المهامز (٣)
فوافي بها أهل المواسم فانبرى لها بيع يغلى بها السوم رائز (٤)
فقال له بايع أخاك ولا يكن لك اليوم عن ربح من البيع لاهز (٥)
فظل يتاجى نفسه وأميرها أيأبى الذى يعطى بها أو يجاوز (٦)
فلما شراها فاضت العين عبرة وفي الصدر حزاز من الوجد حامز (٧)
فذاق فأعطته من اللين جانباً كفى ولها أن يغرق السهم حاجز (٨)
إذا أنبض الرامون فيها ترنمت ترنم ثكلى أوجعتها الجنائز (٩)
هتوف إذا ما خالط الظبي سهمها وإن ريع منها أسلمتة النوافز (١٠)
كأن عليها زعفراناً تميره خوازن عطار يمان كوازن (١١)
إذا سقط الانداء صينت وأشعرت حبيراً ولم تدرج عليها المعاوز (١٢)
وقال النابغة الجعدي يصف ذئباً افترس جؤذراً

فأمسى عليه أطلس النون شاحياً شحيحاً تسميه النباطى نهسراً (٣)
طويل القرا عارى الاشاجع مارد كشق العصا فوه إذا ما تضورا (١٤)

(١) ازور مال ويحاوز يجمع ويضم (٢) درأها دفعها (٣) الثقاف خشبة
التقويم والطريدة قهبة التعديل والمهامز جمع مهاز (٤) الرائز المجرب الخبير
(٥) لاهز صاد (٦) يجاوز يقبل (٧) شراها باعها وحامز ممض محرق (٨) ولها
أن يغرق السهم حاجز أي لها حاجز من أن يغرق السهم (٩) أنبض في القوس
أصاتها أو حرك وترها لترن (١٠) النوافز القوائم (١١) تميره تسيله

(١٢) أشعرت ألبست والمعاوز جمع معوز وهو الثوب الخلق (١٣) شاحياً

فاتحاً فاه (١٤) القرا الظهر والاشاجع السيقان

فبات يذكيه بغير حديدة أخو قنص يمس ويصبح مقفراً (١)
إذا ما رأى منه كراعا تحركت أصاب مكان القلب منه وفر فرا (٢)
هذا وباب الوصف حافل لا نفيه النماذج حقه ههنا طال إيرادها فلنتركه على
هذا القدر على أن نستكمل بعض نقصه من الملاحظات بعد ولذا جعلنا المختار منه
هنا من غير الأنماط الواردة فيها إلا ما كان من وصف الفرس ومع ذلك نحا
المرقش فيه غير ما نحا عنزة وامرؤ القيس
هذا وقد حدثنا عن الاختيار من الملاحظات لأن لها دراسة بعد

٣ - تسجيلة كثيرا من أحوال العرب

لم تدع فنون الشعر الجاهلي ما ذكرنا منها وما لم نذكر خلقا من أخلاق
العرب في ذلك العهد إلا صورته ولا وجدانا من وجداناتهم إلا أظهرته كما
لم تدع في بيئتهم كائنات محسودون وصف ولا في عرفهم شيئا من عادة أو عقيدة
دون ذكر وحسبنا ما تقدم من نماذج في الخلق والوجدان والوصف
أما الأوابد وهي ما جرى عليها العرف العربي عن عقيدة أو عادة فانا عاطفون عليها
هنا بذكر الشواهد الشعرية على الكثير منها دون أن نفصل الكلام في العادة
عن العقيدة لأن معظم العادات كان منشؤه الاعتقاد حقاً كان أم باطلا
١ - قال رجل في الاستقسام بالأزلام وكان ذو الخلصة من الأصنام التي
يستقسم بأزلامها بين مكة والمدينة فقتل أبوه فاراد الطالب بشأره فذهب إليه
فاستقسم عنده فخرج السهم بنهييه فقال

لو كنت يا ذا الخالص الموتورا مثلي وكان شيخك المقبوراً لم تنه عن قتل العداة زورا

(١) يذكيه يذبحه ومقفراً جائعاً (٢) الكراخ بضم الكاف الساق أو
مستدقه وفر فر كسر وقطع وحرك ونفض

٢ — وقال ابن مقبل يفتخر بالأيثار والنجر لها

يا بنت آل هشام هل علمت إذا أمسى المراضيع في أعناقها خضع
أنى أتم أيثارى بذي أود من فرع شوحط ضاح ليظه فرع
يحدو قتائله بيض غطارفة شم الأنوف مغاليق الضحى ضلع
أولو الوفاء ولو أدوا قداحهم ولا يزال لهم من لجمها قنع

٣ — وقال جريبة بن الأشيم الفقعسى لابته يوصيه بالعقر على قبره إذا مات

إذا مت فادفنى بحراء ما بها سوى الأصرخين أو يفوز راكب
فان أنت لم تعقر على مطيتى فلا قام فى مال لك الدهر حالب
ولا تدفنى فى صوى وادفنى بديمومة تنزو عليها الجنادب

٤ — وجريبة هذا هو الذى يقول لابته أيضا فى البلية

ياسعد إما أهـاـكن فانى أوصيك إن أخا الوصاة الأقرب
لا أعرفن أباك يحشر خلفكم تعباً ينخر على اليدين وينكب
فاحمل أباك على بعير صالح وتقى الخطيئة انه هو أصوب
ولعل لى مما جمعت مطية فى الحشر أركبها إذا قيل اركبوا

٥ — ومن أشعارهم فى ضرب الثور لتشرب البقر قول نهشل

كذلك الثور يضرب بالهراوى إذا ما عافت البقر الظماء

ومثل ذلك أشعارهم فى كى السليم ليبراً الأجرب قال النابغة

لكفتنى ذنب امرئ وتركته كذى العر يكوي غيره وهو رافع

وقد استخدم الشعراء هذين المعنيين كثيراً فى الرجل يعاقب وغيره الجانى

قال الشاعر

فلا تجعلوها كالبقر وفحلها يكسر ضرباً وهو المورد طائع

وما ذنبه إن لم ترد بقراته وقد فاجأتها عند ذاك الشرائع

وقال آخر

فألزمتني ذنباً وغيرى جره حنانيك لا تكو الصحيح بأجرها
٦ — وفي مذهبهم في تعليق الحلى والجلجل على اللديغ ويسمونه سليما
تقاولا ليبراً يقول شاعرهم

كاني سليم ناله كلم حية تري حوله حلى النساء موضعاً

ويقول آخر

فبت معنى بالهموم كأنني سليم نفي عنه الرقاد الجلجل
٧ — وقالت امرأة في زوال حلا الشفة بوضع المنخل على رأس المصاب بها
ألا حلا في شفة مشقوقة فقد قضى منخلنا حقوقه
٨ — ويروون أن جنية أرادت صي قوم بسوء فلم تدر عليه فلامها
قومها فقالت تعتذر إليهم

كان عليه نقره ثعالب وهرره والحيز حيز السمرة
وهذا على بعده من الحقيقة يوضح عقيدة بعض العرب في أن تعليق سن الثعلب
والهرة وصمغ السمرة على الصبي يقيه شر الجنة وكذلك كانوا يعتقدون في
تعليق كعب الارنب وأشياء أخرى

٩ — وقال طرفة في تبديل الشمس أستان الاثغار بخير منها إذا قذفت في عينه
بادن نجلاو إذا ما ابتسمت عن شئت كاقحى الرمل غر
بدلته الشمس من منبته برداً أبيض مصقول الاشر
١٠ — ومن عقائدهم التي يكاد يجمع عليها الهامة وهي طائر يزعمون
خروجه من رأس كل ميت فاذا كان قتيلاً لا تزال تقول اسقوني اسقوني فاذا
صديقه حتى يؤخذ بشاره وفي ذلك يقول بعضهم يوحى ابنه

ولا تزقون لي هامة فوق مرقب فان زقاء الهام للمرء عائب
تنادى ألا اسقوني وكل صدي به وتلك التي تبيض منها الذوائب

وقال آخر يهجو ويهجو

وان أخاكم قد علمت مكانه بسفوح قبا تسقى عليه الأعاصر
له هامة تدعو إذا الليل جنبها بنى عامر هل لليلالى ثائر
١١ — وقال بعضهم فى رثاء شريف تتخطاه المقاليت « اللائى لا تعيش
لهن أولاد »

بنفسى الذى تمشى المقاليت حوله يطأن له كشحا هضبا مهشما
١٢ — وقريب من هذا ما كانوا يعتقدونه من أن دم الشريف يشفى من
الكب قال عبد الله بن الزبير الاسدى

من خير بيت علمناه وأكرمه كانت دماؤهم تشفى من الكب
١٣ — ومن أشعارهم فى كى أليتى العاشق لينذهب عشقه ويشفى منه
قول الشاعر

شكوت إلى رفيقى اشتياقى فجاءانى وقد جمعا دواء
وجاءا بالطبيب ليكويانى ولا أبغى عدمتكما اكتواء
ولو أتيا بسامى حين جاءا لعاضتني من السقم الشفاء
١٤ — أما شق الرجل برقع المرأة وشق المرأة رداءه ليدوم حبهما فهاورد
فيه قول سحيم عبد بنى الحساس

إذا شق برد شق بالبرد برقع دوايك حتى كلنا غير لابس
نروم بهذا الفعل بقيا على الهوى والى الهوى يغرى بهذى الوسواس
١٥ — ومن أشعارهم فى إذهاب خدر الرجل بذكر محبوب قول الشاعر
صوب محب إذا ما رجله خدرت نادى كيشة حتى يذهب الخدر
١٦ — ومما يقرب من هذا أن الرجل منهم كان إذا خلجت عينه توقع
رؤية من يحب غائبا أو بعيداً وفى ذلك يقول بعضهم

إذا اختلجت عيني تيقنت أنني أراك وإن كان المزار بعيداً
 ١٧ وأشعارهم في النيران المتنوعة التي اعتادوا إيقادها لما تقدم كثيرة
 متنوعة أيضاً نذكر منها هنا الشواهد على نارين غريبتين أحدهما نار البقر أو
 الاستمطار وذلك أنهم كانوا إذا حبس عنهم الحيا عمدوا إلى حزم من السلع
 والعشر وها نوعان من النبات شديداً الا لتهاب فعقدوها في أذناب البقر
 وأصعدوها في جبل وعمر ثم أوقدوا فيها وساقوها قبل المغرب قال أعرابي وقد
 فعلوا ذلك فلم يمتطروا ثم أمطرهم الله بعد

شفعنا ببيقور الى هاتل الحيا فلم يغن عنا ذاك بل زادنا جدياً
 فعدنا الى رب الحيا - فأجارنا وصير جدي الارض من عنده خصباً
 والثانية نار السعالى والسعالى أخبث الغيلان وهى نار يقولون انها كانت تقع
 للمتغرب المتقفر فيأنس ويهتدى وفي ذلك يقول عبيد بن أيوب :
 والله در الغول أى رفيقة لصاحب دو خائف متقفر
 أرنت بلجن بعدلحن وأوقدت حوالى نيرانا تبوخ وتزهر

١٨ — وعلى ذكر الغيلان وهى السحرة من الجن والشياطين كما كانت
 العرب تعتقد نقول إنها كانت تعتقد أيضاً أن الجن والشياطين تساكنتهم في
 بلادهم ولذلك كانوا يعوذون بهم يؤيد ذلك قوله تعالى « وانه كان رجال
 من الانس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا » وقد سجل الشعر ذلك
 بإفاضة قال بعضهم :

قد بت ضيفاً لعظيم الوادي المانع من سطوة الأعادى راحلتى في جاره وزادى
 وقال آخر :

أعوذ من شر البلاد البعيد بسيد معظم مجيد
 اصبح ياوى بلوى زرود ذى عزة وكاهل شديد

وقال غيرهما

ياجن أجزاء اللوى من عاج عاذ بكم ساري الظلام الدالج
لا ترهقوه بغوى هائج

وقال رابع

هيا صاحب الشجر اهل أنت مانعى فانى ضيف نازل بفنائكا
وانك للجنان فى الأرض سيد ومثلك آوى فى الظلام الصعالك

واستعاذ رجل ومعه ولد بعظيم واد فأكل ابنه الاسد فقال

قد استعدنا بعظيم الوادى من شر ما فيه من الاعادى فلم يجرنا من هز برعاد
١٩ — ولقد تمادى العرب فى هذه العقيدة حتى ادعى بعضهم مخالطة الجن
ومكالتهم واستضافتهم بل والنزوح منهم وتناسلهم ولهم فى ذلك أشعار وأقاصيص

فهذا جندع بن سنان يقول

أتوا نارى فقلت ممنون أنتم فقالوا الجن قلت عموا صباحا

وسمير بن الحارث الضبي يقول

أتوا نارى فقلت ممنون قالوا سراة الجن قلت عموا ظلاما

وهذا عمرو بن ربوع يزعم أنه تزوج من غول وولد له بنون عرفوا ببني
السعلاة وفى ذلك يقول شاعر يهجوهم

يا قبح الله بنى السعلاة عمرو بن ربوع شرار النات ليسوا بأبطال ولا اكيات

وتأبط شرا يدعى أنه قابل غولا اعترضته فقتلها فقال

لهان على جهينة ما ألقى من الروعات يوم رعى بطن

لقيت الغول تسرى فى ظلام بسهب كالعباءة صحصحجان

م — ١٨ أدب

فقلت لها كلانا نضو أرض أخو سفر فخلي لي مكاني
فشدت شدة نحوي فأهوى لها كفى بمصقول يمان
٢٠ - ومن هذه الناحية من الاتصال ما كان يزعمه العرب وشعراؤهم من أن
لكل شاعر شيطانا يلتقى اليه بالشعر وكانوا يعتقدون بوجه عام أن للشعر شيطانين
الهوبر مجيد والهوجل مفسد روى أن رجلا من تميم أتى الفرزدق فقال إني قد
قلت شعرا فانظره قال أنشدني فقال

ومنهم عمر الحمود نائله كأنما رأسه طين الخواتيم

فضحك الفرزدق ثم قال يا ابن أخي ان للشعر شيطانين يدعى أحدهما الهوبر
والآخر الهوجل فمن انفرد به الهوبر جاد شعره وصح كلامه ومن انفرد به
الهوجل فسد شعره وانهما قد اجتمعا لك في هذا البيت فكان معك الهوبر في
أوله فأجدت وخاطك الهوجل في آخره فأفسدت ومن هنا كانوا يسمون
الشعر رقى الشياطين قال جرير

رأيت رقى الشيطان لا تستغفره وقد كان شيطاني من الجن راقيا

ولهذه العقيدة كانوا يسمون لكل مجيد من الشعراء شيطانا خاصا وكانوا
يتحاضرون إلى الجنة إذا ظفروا بهم في تفضيل الشعراء بعضهم على بعض ولهم
في ذلك حكايات وأقاصيص نسوق بعضها على سبيل التمثيل

١ - ذكر مطرف الكنتاني عن ابن دأب عن رجل من أهل زرود عن أبيه
عن جده أنه خرج على فحل له في طلب لقاح ضالة حتى دفع إلى خيمة بقنائها
شيخ كبير فدارت بينهما مكاملة انتهت بطلبه من هذا الشيخ أن ينشده من
أشعاره فأنشده

قفنا نبك من ذكرى حبيب ومزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فلما فرغ قال له لو أن امرأ القيس ينشر لردءك عن هذا الكلام فقال له أنا والله
منسحته ما أعجبك منه قال فقلت له ما اسمك قال لافظ بن لاحظ قلت اسمان
منكران قال أجل فعلمت أنه من الجن فقلت له من أشعر العرب فأنشأ يقول
ذهب ابن حجر بالقريض وقوله ولقد أجاد فما يعاب زياد

لله هاذر إذ يجود بقوله ان ابن ماهر بعدها لجواد
قلت من هاذر بن ماهر قال صاحب زياد الدياني وهو أشعر الجن وأضنهم
بشعره فالعجب منه كيف سلسل لآخى ذييان به ولقد علم بنية لي قصيدة له
له من فيه إلى أذنها ثم صرخ بها اخرجي فدي لك من ولدت حواء فخرجت
فأنشدني .

نأت بسعاد عنك نوى شطون فبانت والفؤاد بها حزين
حتى أتت على قوله منها

فألفيت الأمانة لم تخنها ذلك كان نوح لا يخنون
فقال والله لو كان رأى قوم نوح فيه كراى هاذر ما أصابهم الغرق قال الرجل
حففت البيتین ثم نهض بي الفحل فعدت إلى لقاحي
ب — وحدث مطعون بن مطعون الاعرابي عن أبيه أنه خرج على بعيره حتى
إذا كان في سفح جبل رأى على قمته رجلا عليه أطمار بالية ونجمت بينهما
محاورة انتهت بقوله للرجل أتروى من أشعار العرب شيئا قال نعم أروى
وأقول قولاً فائماً مبرزاً قال فقلت أرني من قولك ما أحببت فأنشأ يقول
طاف الخيال علينا ليلة الوادي لآل أسماء لم يلمم لميعاد

حتى فرع منها فقلت لهذا الشعر أشهر في معد بن عدنان من ولد الفرس الا باق
في الدهم العراب هذا لعبيد بن الابرص الاسدي فقال ومن عبيد لولا هيب فقلت
ومن هيب فأنشأ يقول

أنا ابن الصلادم أدعى الهبي مدحوت القوافي قرى أسد
 عبيدا حبوت بأثوره وأنطقت بشرا على غير كد
 ولاقي مدرك رهط الكبي ت ملاذا عزيزا ومجدا وجد
 منحناهم الشعر عن قدرة فهل تشكر اليوم هذا معد
 فقلت أما عن نفسك فقد أخبرني فأخبرني عن مدرك فقال هو مدرك بن واغم
 صاحب الكيت وهو ابن عمي

ج - وذكر شيخ من أهل البصرة أنه خرج في ليلة مقمرة على جمل له إلى
 الصحراء فأبصر شبحا كهيئة إنسان على ظهر ظليم قد خطمه وهو يقول
 هل يبلغنيهم إلى الصباح هقل كأن رأسه جماح

فعلم أنه جنى قال فقلت له من أشعر الناس قال الذي يقول
 وما ذرفت عيناك إلا لتضربي سهميك في أعشار قلب مقتل
 فعلمت أنه يريد امرأ القيس قلت ثم من قال الذي يقول

وتبرد برد رداء العرو س في الصيف رقرقت فيه العيرا
 وتسخن ليلة لا يستطيع مع نبا حابها الكلب إلا هيرا

فعلمت أنه يريد الأعشى قلت ثم من قال الذي يقول
 تطرد القر بحر صادق وعكيك الصيف إن جاء بقر
 فعلمت أنه يريد طرفة وانقطع الحديث

د - وحدث الأعشى أنه خرج يريد قيس بن معد يكرب بحضرموت ففضل
 حتى وقعت عينه على خباء يبابه شيخ فانتسب له وأفهمه أنه يقصد قيسا فقال
 له حياك الله أظنك امتدحتك بشعر قال نعم قال فأشديني فأشديته
 حلت سمية غدوة أجمالها غضبا عليك فما تقول بدا لها

فقال حسبك هذا البيت أهذه القصيدة لك قلت نعم قال من سميت قلت لا أعرفها
 إنما هو اسم القى فى روعى فنادى باسمية اخرجنى أنشدى عمك قصيدتى التى
 مدحت بها قيس بن معديكرب فاندفعت تنشد حتى أتت على آخرها لم تخرم
 فيها حرفاً ثم قال هل قلت شيئاً غير ذلك قلت نعم كان بينى وبين ابن عم لى
 يقال له يزيد بن مسهر ما يكون بين بنى العم فهجاني فهجوته فأثخنته قال ماذا
 قلت فيه قلت قلت

ودع هريرة ان الركب مرتحل وهل تطيق وداعاً أيها الرجل
 فقال حسبك من هريرة قلت لا أعرفها وسبيلها سبيل التى قبلها فنادى يا هريرة
 أنشدى عمك قصيدتى التى هجوت بها يزيد بن مسهر فأنشدتها كسا بقمتها فسقط
 فى يدى وتحيرت وتغشتنى رعدة فلما رأى ما نزل بى قال ليفرخ روعك يا أبا
 بصير أنا هاجسك مسحل بن أثاثة الذى التى على لسانك الشعر قال فسكنت نفسى
 ثم دانى على الطريق وأراني سميت مقصدي . وفى مسحل هذا يقول الاعشى
 وما كنت شاحوذا ولكن حسبتي اذا مسحل يسدى لى القول أعلق
 شريكاً فيما بيننا من هوادة صفيان انسى وجن موفق
 يقول فلا أعيا بقول يقواه كفاني لاعى ولا هو أخرق
 ويقول فيه وفى جهنم شيطان فرو بن قطن

دعوت خليلي مسحلاً ودعوا له جهنم جدعا للهجين المذم
 وهذا مذهب شائع قال حسان بن ثابت
 ولى صاحب من بنى الشيصيا ن فطوراً أقول وطورا هو
 وقال أبو النجم

انى وكل شاعر من البشر شيطانه أنى وشيطاني ذكر

وقال آخر .

اني - ان كنت صغير السن و كان في العين نبو عنى

فان شيطانى أمير الجن يذهب بى فى الشعر كل فن

والرأى فى هذا وأمثاله أن الجن مع وجودها لا يقع منها اللانسى ما تدعى العرب
والنما هذه تخيلات صوروها ليرفعوا من قيمة الشعر وأنه كاسحر لا ينبغي
صدوره إلا عن الجن الذين هم فى اعتقادهم مصدر العبقرية فى كل شىء ولذلك
يقولون عن كل معجب عبقرى نسبة الى عبقر وما عبقر عندهم إلا واد للجن
وليس هذا الخيال قاصرا على العرب وحدهم إذ تشاركهم فيه الأمم القديمة
جميعا بل كان معظمها يعبد هذه القوى الخفية من خيرة طمعا فى خيرها وشريرة
خوفا من شرها . أما تلك الاقاصيص فهى أساطير حاكوها كما حاكوا مضارب
الأمثال الفرضية وكما وضعت سائر الأمم أساطيرها وليس عليهم فى ذلك
ما يعاب فى الناحية الادبية ينبغى أن يطلق من عنان الخيال ما شاء الخيال

٤ - تأثيره و منزلة رجاله

لقد كان للشعر فى العرب تأثير ما أبلغه من تأثير ولرجالهم بينهم مكانة
ما أرفعها من مكانة ذلك انهم كانوا ذوى فطر سليمة ونفوس حساسة وكان
الشعر طبيعة فيهم يمتزج منهم بالدم واللحم لا يزالون يقولونه ويستوحون سماءه
فينقادون لخياله ويخضعون لأحكامه . وكان للشعراء عليهم نفوذ وسلطان
لا يقل شأننا عن نفوذ الصحف السيارة الآن على الأفراد والجماعات فكانت
كل قبيلة تغتبط بكثرة شعرائها وتتخير من بينهم اقوام حجة وبلغهم قولاً
ليكون المشيد بمحاسنها ومفاخرها الذاب عن اجسادها واعراضها أثر فيما اثر

أن القبيلة كانت إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل الأخرى لتهنئتها فصنعت
الاطعمة ومدت الموائد وتباشر الرجال والولدان واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر
كما يصنعن في الأعراس . ولشدة ما كان للشعر من تأثير جاوز فيه المنطق وتعدي
المعقول نسبة العرب إلى الجن وسمو الشعراء بالساحرين قال رؤبة

لقد خشيت أن تكون ساحرا راوية مرا ومرا شاعرا
وكان ذلك عاما ففي كل باب من أبوابه كان يبلغ الشاعر ما لا يبلغ غيره إذا
نسب رقق القلوب القاسية واستنزل العصم العاصية وإذا وصف أراك ما لم تق
كأنه المرئي وقد يكون تمثيلا لا يستند إلا إلى الخيال والتصوير واذ رثي آثار
الشجون وحرك مكان الذكريات فاذا ما فخر بالحماسه والاستبسال حبيب إلى
الجبنة القتال وأرخص الموت على مفلى الحياة قال معاوية بن أبي سفيان اجعلوا
الشعر أكبر همكم وأكثر دأبكم فلو قد رأيتني ليلة التحرير بصفين وقد أتيت بفرس
أغر محجل بعيد البطن من الأرض وأنا أريد الهرب من شدة البلوى فما حملني
على الإقامة إلا زيات عمرو بن الاطنابة

أبت لي همي وأبي بلائي وأخذني الحمد بالثمن الريح
وإقحامى على المكاره نفسي وضربى هامة البطل المشيح
وقولى كلما جشأت وجاشت مكانك تحمدى أو تستريحى
لا أدفع عن مآثر صالحات وأحمى بعد عن عرض صحيح

وابن الاطنابة كما تقدم من شعراء الخزرج الجاهليين
أما شعراء المدح والهجاء فقد كانوا شفاء أقوامهم وسموم أعدائهم لا يزالون
لقبائهم يحمون سلطانها ويرفعون بنيانها كما يذبون عن حياضها ويدافعون عن
وردها وأمر احتفاء القبائل بشعرائها كثير الخواصث مروي الأ شعراء وإن يكن

الذي نريده أقوى حجة في الاستدلال على تأثير الشعر أن الشاعر كان إذا تعرض لقبيلة بهجاء وفيها من الشعراء من يخشى لسانه ويتقى هجوه لم يك أمام قبيلته في دفع ما تحذر إلا حمله الى من هجأهم متبرئة منه ومسالمة فيه وهذا ما حدث حين هجأ عبد الله بن الزبير السهمي بنى قصي فقد رفعه السهميون الى عتبة بن ربيعة خوفا من هجاء الزبير بن عبد المطلب وكان شاعرا شديدا العارضة قدح الهجاء فلما وصل عبد الله اليهم أطلقه حمزة بن عبد المطلب وكساه فقال عبد الله غير مستنكر ما فعلت عشيرته

لعمرك ما جاءت بنكر عشيرتي وان صالحت اخوانها لألومها
فان قصيا أهل مجد وعزة وأهل فعال لا يرام قديمها
وكان الزبير غائبا بالطائف فلما وصل الى مكة وعلم الخبر قال

فلولا نحن لم يلبس رجال ثياب أعزة حتى يموتوا
ثيابهم سمال أو طمار بها ودك كما دسم الحيت
ولكننا خلقنا إذ خلقنا لنا الخيرات والمسك الفقيت

وكان الشاعر اذا رضى لنفسه أن يتجاوز بمدحه وهجائه قبيلته وأعداءها تطلعت اليه القبائل الاخرى فأخذت تقربه رجاء مدحه فيها وهجائه لمناظرها كما كان من الخطيئة فقد استضافه الزبرقان بن بدر من بنى بهدلة وقصرت امرأته في اكرامه وهو غائب فأخذ بهغيض بن عامر من آل لاعي بن شماس وبالع في اكرامه فكان خير ما قاله من شعر هجاء ومدح في هذين الحين وقد دلف شئ منه في النماذج

على أن التبحر على الشعراء لم يك قاصرا على القبائل بل تعداها الى الملوك فهذا النعمان بن المنذر ملك الحيرة تبصر كيف كان اجتذابه للناطقة

يمدحه ويمدح آل بيته وكيف حمده عليه الغساسنة ملوك الشام فأعظموا في
حباؤه حتى مدحهم ثم كيف غضب النعمان عليه لذلك غضبا سارت باعتبارات
النابعة عنه الامثال ومع ذلك لم ينل من النعمان رضا لآءن الشركة في هذا الباب
بين متناظرين ليست مما يطاق

ومن غريب تأثير الشعر أن الشاعر كان اذا وعدهم سيديا لم يجد من يفصل
عنه ذلك الا هذا الشاعر نفسه ذكره أن بشر بن أبي خازم الاعدى لما
حمل على هجاء أوس بن حارثة بن لأم الطائي فهجاه بما تقدم بهضه ووقع
بشر أسيرا عند بني نهمان من طيء اشتراه أوس بمائتي بهير ولما أخذه قال له
هجووني ظالما فاختر بين قطع لسانك وحبسك في سرب حتى تموت وبين قطع
يدك ورجليك وتخليه سبيلا هكذا ذكر الرواة ورأي أن سياق القول يقتضى
قرن التخليه بقطع اللسان والحبس بتقطيع اليدين والرجلين وأن هذا تحريف
قالوا فسمعت أمه وهى سعدى بنت حمير من سادات طيء فقالت لا أوس يا بني
لقد مات أبوك فرجوتك لقومك عامة فأصبحت والله لأرجوك لنفسك خاصة
أزعمت أنك قاطع رجلا هجالك فن يمجو اذن ما قال فيك قال فما أصنع به قالت
تكسوه حلتك وتحمله على راحتك وتأمر له بمائة ناقة حتى يفصل مديحه هجاءه
ففعل فامتدحه فأكثر قال أبو محمد الاخفش مدح بشر أوسا وأهل بيته مكان
كل قصيدة هجاءهم بها قصيدة وكان هجاءهم بخمس مدحهم بخمس

ومن مدائح فيه قوله من قصيدة والخطاب للناقة

الى أوس بن حارثة بن لأم لربك فاعملى انت لم تخافى

فما صدع بنجة أو بشرج على زلق زواق ذى كهاف

نزل اللقوة الشفواء عنها مخالبها كأطراف الأشفاف
 بأحرز موئلا من جار أوس إذا ما ضيم جيران الضعاف
 وماليت بعثر في غريف تغنيه البعوض على النطاف
 مغرب ما يزال على أكيل يناعي الشمس ليس بذى عطاف
 بأأس سورة بالقرن منه إذا دعيت نزال لدى النفاف
 وما أوس بن حارثة بن لأم بغير في الأمور ولا نضاف
 ومن ذلك ما كان من حسان بن ثابت في بني عبد المطلب هجاءهم ببسطة
 أجسامهم وكانوا يفخرون بها فقال
 لا بأس بالغوم من طول ومن غلظ جسم البغال واحلام العصافير
 فلم يزالوا يخرجون منها حتى محاذ ذلك عنهم بقوله
 وقد كنا نقول إذا التقينا لدى جسم يهد وذى بيان
 كأنك أيها المعطى لسانا وجسما من بني عبد المطلبان
 وأغرب مما تقدم في تأثيره أنه كان إذا تعرض لنا به أنزله من ذروته فإذا أعان
 خاملا رفعه من وهدهته فمن قضى على مكانتهم الربيع بن زياد وكان من خواص
 النعمان لم يزل ينادمه ويؤاكلة حتى سمع فيه وهما يأكلان أرجوزة لبيد التي يقول
 فيها « مهلا أبيت اللعن لا تأكل معه » وفيها إقذاع فرقع يده عن الطعام فقال
 الربيع أبيت اللعن كذب الغلام وأراد الاعتذار فقال النعمان
 قد قيل ما قيل إن صدقا وإن كذبا فما اعتذارك من قول إذا قيل
 ثم حجبه بعد ذلك فسقطت منزلته : ومن رفعهم بعد خمول المحاق الكلابي وكان
 مملتا كثير البنات قد رغب عن مصايرته الأزواج فأشارت عليه امرأته أن
 يضيف الأعرشي وهو قادم إلى الموسم فيكرمه بكل ما يملك ليقول فيه قولا تزوج

به بناته وتحسن حاله ففعل وعرف الاعشى ذلك فلما أصبح بهكاظ أنشد قافيته
المشهورة التي يقول فيها فيما نحن بصدد

نفي الذم عن رهط المحاق جفنة كجناية الشيخ العراقي تفهق
تري القوم فيها شارعين وبينهم مع القوم ولدان من النسل دردق
لعمري لقد لاحت عيون كثيرة الى ضوء نار باليفاع تحرق
تشب لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندي والمحاق
رضيحي لبان ثدى أم تحالفا بأسحهم داج عوض لا تفرق
تري الجوديجري ظاهرا فوق وجهه كما زان متن الهندواني رونق

فما أتم القصيدة إلا والناس يتسألون إلى المحاق يهنئونه ويخطبون بناته فلم تمس
واحدة منهم إلا في عصمة رجل بين الفضل على أيها .

بل لقد بلغ من تأثير الشعر أنه كان بيت : اعدو يحمل مفخرة القبيلة نسبة ومسبتها
مفخره كان بنو المجلان ينشرون بهذا الاسم لا بينهم لما روى من أنه لقب به
لتعجيله قري الأضياف فلما هجأهم النجاشي بأبيات منها
وما سمي المجلان إلا لقولهم خذ الذهب واحلب أيها العبد والعجل
صاروا يستحيون منه وكان بنوا أنف الناقة يخرجون من هذا الاسم ويتجاوزونه
في نسبهم حتى قال الخطيئة

قوم هم الأنف والأذنان غيرهم ومن يسوى بأنف الناقة الدنيا
فصاروا يتناولون به ويمدون فيه أصواتهم بجملة
بل بلغ من تأثيره أيضا أنه كان كما قيل

يرى حكمة ما فيه وهو فكاهة ويقضى بما يقضى به وهو ظالم
وتدعى نهر عامر بن الطفيل نلي شائمة بن علانة مع تسوية الحكم وهو

هرم بن قطيبة بينهما بقول الأعشى

علقم ما أنت الى عامر بالناقض الأوتار والوتر

إن تعد الحوص فلم تعد لهم وعامر ساء بني عامر

لى آخر ما قال

من ذلك كاه وغيره كان الشعراء ذرى منزلة ترجى وترغب كما تخاف
وترهب لا يزالون يستخدمون للوعيد والاعزاء ويستعان بهم فى الاستعطاف
والاستشفاع فى الجاهلية أغرى أوس بن حجر النعمان بن المنذر على بنى حنيفة
فأنكل بهم واستشفع علقمة الفحل الحارث النعماني فى أخيه شاس وتسعين أسيرا
معهم من تبهم فأطاعهم له جميعا وفى حياة النبي صلى الله عليه وسلم كان ما كان
للمسلمين والمشركون على ألسنة الشعراء من الفريقين وأمر رسول الله فى ذلك
وفى قبول الشفاعات من الشعراء ثابت معروف وما بعده فى سائر العصور
كثير مشهور ولا يمكن لأداعى ونحن فى العصر الجاهلى أن نجاوزه الى ما خلفه
من عصور فيما كان للشعر من أثر وللشعراء من مكان

ه — طبقات الشعراء ومنزلة أصحاب المعلقات فيهم

ثم سلب تسميتها بهذا الاسم

ليس فى طبقات الشعراء من حيث عصور التاريخ خلاف فالكل مجمعون
على أنهم أربع طبقات جاهليون لم يدر كوا الاسلام كأمري القيس وأدر كوه
ولم يقولوا فيه شعرا كالبياض ومخضرمون أدر كوه وقالوا فيه شعرا كحسان
والخطيئة واسلاميون وهم من لم يدر كوا الجاهلية ونهايتهم آخر العصر الاموى

كافر زدي وجريرو والاخلال ثم مولدون وهم الذين اختلطوا بشعوب الامم
الاخرى من الفرس والروم والمصريين وغيرهم منذ الدولة العباسية إلى
ما شاء الله

ولكن الخلاف كبير في تقسيمهم من حيث الشعر والشهرة في كل عصر
من هذه العصور والذي يعنينا الآن العصر الجاهلي وأقصم القول فيه ما كان
لأبي عبيدة معمر بن المثنى فقد جمعه ثلاث طبقات وضع في أولها امرؤ القيس وزهيرا
والنابعة وفي ثانيها الأعشى وليلى وطرفة في ثالثها عنزة وعمر و بن كلثوم
وعروة بن الورد ودريد بن الصمة والمرقش الأكبر وحاتم الطائي وكأنه
سكت عن طبقة رابعة يوضع فيها الحارث بن حلزة وسائر الشعراء وبذلك
تفهم طبقة كل واحد من رجال المملكات . واهل أطول تقسيم للطبقات ما فعل
ابن سلام فقد أوصلها إلى عشر غير شعراء المرائي وشعراء القرى العربية الخمس
وهي المدينة ومكة والطائف واليمامة والبحرين وغير شعراء اليهود في المدينة
وأكنافها ووضع في كل طبقة أربعة شعراء على ما في اتحاد العدد من تحكم لا يتفق
وطبيعة التقسيم فكان امرؤ القيس وزهيرا في الأولى ومعهما النابعة والأعشى
وكان ليلى في الثالثة ومعه نابعة بنى جعدة وأبو ذؤيب الهذلي والشماخ بن
ضرار وكان طرفة في الرابعة ومعه عبيد بن الأبرص وعلقمة بن عبدة النحل
وعدي بن زيد وكان عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وعنزة في السادسة
ومعه سويد بن أبي كاهل وليس فيما لم نذكر من باقي الطبقات وهي الثانية
والخامسة والسادسة والثامنة والتاسعة والعاشر أحد من رجال المملكات

فان سلام على طول تقسيمه يتفق مع أبي عبيدة في أن المتقدمين على جميع
الشعراء أربعة هم امرؤ القيس وزهيرا والنابعة والأعشى وهذا الذي يكاد يمتد

عليه الاجماع غير أن الخلاف في أيهم المتقدم بالغ أشده فعلماء البصرة يقدمون
 امرأ القيس وأهل الكوفة يقدمون الأعشى والحجازيون يقدمون زهيراً
 والناطقة والذي يجدر بالباحث اتباعه عدم الاعتداد بهذا الخلاف لأنه لفظي
 أكثر منه في الصميم إذ لكل وجهة نظر تخالف وجهة الآخر. فمن احتج
 لامرئ القيس نظر إلى سبقه في ابتداع أشياء استحسناها العرب واتبعه فيها
 الشعراء كاستيقاف الأصحاب وبكاء الأطلال والأكثار من التفضيل وتشبيه
 النساء بالبيض والطباء والخيل بالعقبان والوحوش وأنها قيد الأوابد وغير
 هذا ومن احتج زهير نظر إلى أنه أحكمهم شعراً وأبعدهم من السخف وأجمعهم
 لكثير من المعاني في قليل من الألفاظ وأنه كان لا يعاقل بين الكلام ولا
 يتبع حوشيه وأنه مع بلوغه في المدح لم يمدح أحداً بغير ما هو فيه ، ومن احتج
 للناطقة قال إنه أحسنهم ديباجة شعر وأكثرهم رونق كلام وأجزأهم بيتاً
 وكان شعره منشور لا تكلف فيه . أما أصحاب الأعشى فقالوا إنه أكثرهم
 عروضاً وأزهيمهم في الشعر فنحننا وأكثرهم طويلاً جيدة ومدحاً وهجاء ونظراً
 وصفة هكذا قال ابن سلام وذكر أنه شهد خلفاً وقد قيل له من أشعر الناس
 فقال ما ينتهي هذا إلى واحد يجتمع عليه كما لا يجتمع على أشجع الناس وأخطب
 الناس وأجمل الناس

والذي عليه أكثر الرواة في المعلقات أنها كما جمعها حماد وأوردها الزوزني
 سبع وهي بالترتيب قفانك لامرئ القيس ، نحوه أطلال لطرفة ، أمن أم
 أوفى زهير ، عفت الديار للبيد ، ألاهي لعمرو بن كلثوم ، هل غادر الشعراء
 لعمتر ، آذنتنا يمينها لليعارب بن حلزة وقد جعلها صاحب الجمهرة ثمانياً باسقاط
 ابن حلزة وزيادة الناطقة فالأعشى بعد زهير ومعلقة الأول « عوجوا فحجوا لنهم

دمشق الدار» و«معلقة الثاني» «ما بكاه الكبير بالاعطال» و«هدهم لبيد فعمرو فظارفة
فعمتره. أدا التبريزي فجعلها عشرة بزيادة ثلاث على السبع اثنتين للنايفة والاعشى
كما فعل صاحب الجهرة والكنهيا» «يادار هبة بالاعياء فالسند» للنايفة، «ودع هريرة
ان الركب صرحتل» للاعشى ثم واحدة لهبيدهى «أقفر من أهله ما حوب» وقد
ألحق بها قصيدة ثانية للاعشى هى «ألم تفتمض عينك ليلة أردنا»

وفى سبب تسميتها بالمعلقات خلاف. فابن عبد ربه يقول إنه تعليقها على
الكعبة وهذا كلامه (وقد بلغ من كلف العرب بالشعر ونقضيلها له أن عدت
سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب فى القباطى المدرجة
وعلقها بأستار الكعبة فمنه يقال مذهب امرئ القيس ومذهب زهير والمذاهب
سبع يقال لها المعلقات) وقد وافقه على ذلك ابن رشيقي وابن خلدون إلا أن
الآخر لم يقيّد التعاق بالاستار ولا الكتابة بماء الذهب ولا فى القباطى وقال
بقوله صاحب الخزنة

وأبو جعفر النحاس وكان معاصرا لابن عبد ربه ينكر التعليق على الكعبة
ويقول إنه لا يعرفه أحد من الرواة مستندا فى ذلك على أن حمادا حين جمعها
قال هذه هى المشهورات فسميت القصائد المشهورة ولو كانت علق على
الكعبة لأعطاه هذا الاسم . وقد أخذ المستشرقون بهذا رأى على زعم أنه
لم يوجد للتعليق أثر ولا ذكر حين تهدمت الكعبة وجددت على عهد رسول
الله صلى الله عليه وسلم وعلى زعم أن العرب لا تدنس الكعبة بتعليق أمثال شعر
امرئ القيس عليها ولكن هذين الزعمين ليسا بالداليلين القاطعين فان التنيس
ليس بما تراه العرب فى الشعر لما له عندهم من عظيم المكانة وهذا عبد الله بن عباس
على منزلته كان يجلس فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع شعر

ابن أبي ربيعة فلا ينكر عليه ذلك وأما عدم وجود أثر أو ذكر فسببه أن التعليق لم يك دائما بل في فترات غير طويلة لا تعدو الموسم الذي قيلت فيه المعلقة وقد ذهب كل ذلك قبل الإسلام هذا على أن تعليق الأشياء الهامة على الكعبة كان من دأب العرب جاهلية وإسلاما فقد علق قريش الصحيفة التي تأمرت فيها على قطيفة بنى هاشم وعلق الرشيد عهده بالخلافة للأمة والمؤمن. والذين ينكرون هذا التعليق يتأسسون لهذه التسمية سببا غيره فمنهم من يقول إن الأشعار حينما كانت تذكى بهكاظ وتستحسن يبلغ ذلك ملك الحيرة فيقولوا لنا هذه بمعنى أثبتوها في خزائنا وقد روي أنه كان عند ملوك الحيرة ديوان مكتوب جمع فيه شعر الفحول على ما رواه ابن سلام. ومنهم من يقول إن العرب كانت في الجاهلية إذا كتبت شيئا في الرقاع المستطيلة من الحرير أو الجلد أو نحوها نفخت عليه قرص فارة أو تأكل عثة طوته على عود أو خشبة وعلقتة في جدار البيت أو الخيمة بهيدا عن الأرض ولحرصهم على المملكات فعلوا بها ذلك فأخذت هذا الاسم

ذاك مجمل ما قيل في أسباب التسمية بالمملكات وعندى أن أنتجها هو القول تعليقها على الكعبة والمكن كما قال ابن خلدون والبغدادى لأن غيره لا ينهض بتلك التسمية على أية حال

٦ — منزلة المملكات من الشعر الجاهلي

أما منزلتها من الشعر الجاهلي ففي الذروة من منازلها لما امتازت به من طول الغافية وتنوع الأغراض وكثرة ما ابتكر فيها من ضرب المعاني والتشبيهات على ما لا سواها من القوة والمثاقاة وهذه نبذة من مشتملات كل مملعة وبعض النماذج لهذه المشتملات تبين ما ذكرنا من ميزات

١ - معلقة امرئ القيس

سلك امرؤ القيس في معلقته مسلكاً صور فيه حياته فأرانا كيف كان
يعيش لا هياً لاعباً قد أرخى لنفسه العنان الى غير حد فلم يتصنع في احساس
ولم يتستر وراء تعبير بل ترك بيانه طوع شعوره لاسلطان عقله على هواه ولا
فكك للسانه عما يريد وكل ذلك في أغراض متجانسة وأساليب يأخذ بعضها
بمحجز بعض

بدأها بنخير مطلع عرف على غير مثال سابق هو الوقوف على الأطلال
للبيكاه من ذكرى أحبابها الراحلين وقد تصور مرارة البين والفراق فوقف
أصحابه يؤسونه وهو لا يرى من شفاء في غير سفح العبرات قال
قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحول
وقال

كأنى غداة البين يوم تحملوا لدى سمرات الحى ناقف حنظل (١)
وقوفا بها صبحي على مطيهم يقولون لا تمك أسي وتعمل
وان شفاى عبرة مهراقة فهل عند رسم دارس من معول
بهذا بدأ ثم انسل الى أن ذلك دأبه من أمى الحويرث والرباب وأخذ يصنفهما
ويذكر أياما له معهما ومن ذلك خلاص الى يوم الدارة مع فاطمة ابنة عمه
فأطال ماشاء وكان ختام محاورته معها ذلك العتاب

أفاطم مهلاً بعض هذا التذلل وان كنت قد أزمعت صرعى فأجلى
وان تك قد ساءتك منى مخليقة فسلى ثيابى من ثيابك تنسل (٢)

(١) السمر شجر ونقف الحنظل شقه عن حبه (٢) قيل ان المراد بالثياب هنا القلب

أغررك منى أن حبك قاتلى وانك مهما تأمرى القلب يفعل
وما ذرفت عيناك الا لتضربى بسهميك فى أعشار قلب مقتل (١)
وكأنه عز على نفسه أن يكون الدليل أمامها فأخذ يريها عزته مع غيرها وكان
من ذلك ديبه الى ربة خدر هو ذو منزلة منها على ما أوتيت من منعة وجمال أخذ
يصف آياته ويعدد محاسنه الى أن قال

تضىء الظلام بالعشاء كأنها منارة تسمى راهب متبتل
الى مثلها يرنو الحليم صبابة اذا ما اسبكرت بين درع ومجول (٢)
تسلت عمايات الرجال عن الصبا وليس فؤادي عن هواها بمنسل
وقد دفع به الدبيب الذى كان ليلا حيث يقول

إذا ما الثريا فى السماء تعرضت تعرض أثناء الوشاح المفصل (٣)
إلى ذكر الليل وطوله على ذوى الهموم فبلغ فى ذلك مبلغا كان آية الإعجاز
اسمع اليه يقول

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليهتلي
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكل كل (٤)
ألا أيها الليل الطويل ألا انجلى بصبح وما الا صباح منك بأمثل
فيالك من ليل كأن نجومه بكل مغار الفتل شدت بيندبل (٥)
كأن الثريا علقت فى مصامها بأمراس كتان الى صم جندل (٦)

(١) السهمان هما المعلى بسبعة والرقيب بثلاثة وأخذها لا يبقى من أقسام البعير
شيئا لانها عشرة (٢) اسبكرت استطالت والدرع ثوب الكبيرة والمجول ثوب
الجارية (٣) الاثناء الاوساط والمفصل الذى فصل بين خزره (٤) الصلب
الظهر والعجز المؤخر والكامل الصدر (٥) مغار الفتل شديده ويندبل جبل
(٦) مصامها سكونها والامراس الحبال

وهذا ليل قد أحياه ساهرا غير ليل الديب (والحديث ذو شجون) بقطع الأودية
سماعا لعواء الذئاب مشبها نفسه بها إلى أن ولى فغدا إلى الصيد بفرس أنى فى
وصفه بما لم يسبقه إليه سابق ولا أدركه فيه لاحق قال

وقد أغتدى والطير فى وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر معا كجملود صخر حطه السيل من عل
دير كخزوف الوليد أمره تتابع كفيه بخيط موصل (١)
له أيطلا ظي وساقا نعامة وإرخاء سرحان وتقرىب تنقل (٢)
وما إن عن له سرب حتى حمل عليه بفرسه الذى يقول فيه بعد أن أجاد نعتة
فعادى عدا بين ثور ونعجة درا كاد ولم ينضح بماء فيغسل
فطل طهارة اللحم من بين منضج صفيق شواء أو قدير معجل (٣)
وهكذا قضى يومه مع صحبه ثم راحوا وكانت العشية عشية برق ينذر بمطر
وابل لم يلبث أن هطل

فأضحى يسح الماء حول كتيفة يكب على الأذقان دوح الكنهيل (٤)
ومر على القنان من نقيانه فأنزل منه العصم من كل منزل (٥)
ثم لم يترك جذع نخلة الا قعره ولا أطما الا جدله فغدا ثبير ورأس المجيعروها
جبلان كما قال

كأن ثبيرا فى عراني وبله كبير أناس فى بجاد مزمل (٦)

(١) الدير الدار والخزوف نخلة الصبي (٢) أيطلا الظبي خاصر تاهو السرحان
الذئب والتفتل الثعالب (٣) القدير ما يطبخ فى القدر (٤) كتيفة موضع والكنهيل
شجر ودوحه عظيمه (٥) القنان جبل ونقيان المطر ما يتطاير منه ومن زائده
(٦) ثبير جبل وعرانين الوبل أوائلة ومزمل صفة لبجاد تجوزا

كأن ذرا رأس المجيهر غدوة من الـيل والغشاء فلاـكة مغزل (١)
وما أجمل موازنته بين حالي المكاكي والسباع غب هذا السيل حيث يقول وبه
ختم المعالجة

كأن مسكاكي الجواء غدية صبحن سلافا من رحيق مفلفل (٢)
كأن السباع فيه غرقى عشية بأرجائه القصى أنابيش عنصل (٣)

٢ — معالجة طرفة

بدأ طرفة معالته كما بدأ امرؤ القيس بالوقوف على الدمن وتذكر أهلها
الظاعنين واتفق معه لولا القافية في البيت

وقواقها صحي على مطيهم يقولون لانهلك أسي وتجلد
والكنه خالف في ذكر الهواج وفي تشبيهها بالسفن وتشبيهه حيازيم السفن
بيد المقاييل قال

كأن حدود المالكية غدوة خلايا سفين بالنواصف من دد (٤)
عدولية أو من سفين ابن يامن يجور بها الملاح طوراً ويهتدي (٥)
يشق حباب الماء حيزومها كما قسم الترب المقاييل باليد (٦)
ومنها انتقل الى التشبيب بفتاة تشبها لم يطل فيه والكنه أجاد وكان فيما قال
في الثغر والوجه

(١) المجيهر جبل والغشاء النبات وفلاكة المغزل رأسه (٢) المكاكي نوع
من الطيور والسلاف الخمر والمفلفل المخلوط بالفلفل (٣) الانبوش الاصل
والعنصل البصل البري (٤) جمع حدج وهو مركب النساء والخلايا العظام والنواصف
المتسعات ودد واد عظيم (٥) نسبة الى عدول قبيلة بالبحرين وابن يامن رجل
(٦) الحباب الامواج والخيزوم المصير والمقاييل لاعب الفيال

وتبسم عن ألمى كأن منورا تخال حمر الرمل دعص له ندى (١)
سقطه أيا الشمس الا لثائه أسف ولم تحككم عليه بأثم (٢)
ووجه كأن الشمس ألقتر داءها عليه نقي اللون لم يتخذ (٣)
وكل ذلك لم يكن له بالمقصود فقد مر عليه مرا قضاء لحق المطالع عند العرب
ثم انتقل الى ما يريد وأوله وصف الناقة فساخ فيه أربعة وثلاثين بيتا لم يترك
شيئا من أوصافها الحسية الا وفاه بدقة وحسن أداء ولا من ضروب سيرها
نوعا الا أجراه في لباقة ورصف كلام وكان آخر ما أفرغ عليها من صفة
جعله اياها أداة نجلته المستخرخين ولو لم يقصدوه قال

على مثلها أمضى اذا قال صاحبي ألا ليتني أفديك منها وأفتدي
وجاشت اليه النفس خوفا وخاله مصابا ولو أمسى على غير مرصد
اذا القوم قالوا من فني خلت أنى عنيت فلم أكسل ولم أتبلد
ثم ذكر سيرها وشبهها متبخترة فيه بالوليدة ترى ربها أذبال ثوبها الطويل فكان
التشبيه الثالث والعشرين في الناقة مما انفرد به دون سائر الشعراء ومن ثم عد
من وصافي الابل المبرزين وقد وصل هذه المتبخرة التي انتهى اليها في هذا
الوصف بمفاخر تنبيء عن صفاته وأحواله فذكر أنه فوق نجلته وطيب أرومته
تلقاه في حلقة السادة إذ تكون المقامة كما تصطاده في حوانيت اللامين حين
اللهو قد توسط مداماه ومعه قينة تغنيهم وأن عشيرته لذلك قد تحامته ولكن
ذلك التحامى لم يطعن في بقائه معروفا للجميع قال

(١) اللمى الضارب الى السواد والمنور الاقحوان والدعص الكثيب
(٢) أيا الشمس شعاعها والسكرام العنق والاسفاف الخلط (٣) يتخذ
التشقق.

فأت تبغنى في حلقة الغوم تلقى وان تلمسنى في الحوائت تصطد
نداءى بيض كالنجوم وقينة تروح اليها بين برد ومجسد (١)
رحيب قطاب الجيب منها رفيقة بحس النداءى بضمة المتجرد (٢)
إذا نحن قلنا أسمعنا انبرت لنا على رسالها مطروقة لم تشدد (٣)
إذا رجعت في صوتها خلت صوتها تجاوب أظآر على ربع ردى (٤)
وما زال تشرابى الخمر ولذتى ويمنى وإتفاقي طريفى ومتلدى
الى أن تحامتنى العشيرة كلها وأفردت أفراد البعير المعبد (٥)
رأيت بنى غرباء لا ينكرونى ولا أهل هذالك الطراف الممدد (٦)
فهذه نفسية طرفة اللاهى حللها لنا فى هذه الأبيات وأخذ بعدها يلوم من
يزجره أن يحضر الوغى ويشهد اللذات مادام لا يستطيع عنه دفع المنون ويندكر
أن العيش لثلاث الخمر والنجدة والذماء ومن حرمها كان بخيلا لا يلبث أن
يترك ماله ويموت فلا يكون لقبره فضل على قبر الكرماء وهذا بعض ما قال
أرى قبر نحام بخيل بماله كقبر غوى فى البطالة مفسد (٧)
أرى الموت يعتام الكبار ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد
أرى العيش كنزا ناقصا كل ليلة وما تنقص الأيام والدهر ينفد
لهمرك ان الموت ما أخطأ الفتى كالمطول المرخى وثنياه فى اليد (٨)
منى مايشأ يوما يقده لحنقه ومن يك فى حبل المنية ينقد

(١) الجسد ما يلى الجسد أو ما صبح بالجسد وهو الزعفران (٢) أقطاب
الجيب مخرج الرأس منه (٣) المطروقة الضعيفة (٤) الاظآر ذوات الولد والربع
ابن الربيع (٥) المعبد المطلق بالقطران (٦) الغرباء الارضى وبنوها الفقراء
والطراف البيت (٧) النحام السعال سمي به البخيل لانه يكثر سعاله اذا طلب منه
شيء (٨) الطول الحبل الذى يطال للدابة لترعى

ومن هنا خرج الى مالك ابن عمه يعاتبه تلى لوده اياه في طلبه حمولة أخيه
معبد واستعانته به في الطالب مع أنه فعل ذلك تقريبا للقربى مع قدرته على مقابلة
الجميل بجميل وفي هذا فاضت عاطفته بما نترك التعبير له حيث يقول

فلو كان مولاي امراً هو غيره لفرج كربي أو لا نظرنى غدى
واكن مولاي امرؤ هو خانقى على الشكر والتسأل أو انا مفتدى
وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند
فذرني وخلقى لئننى لك شاكر ولو حل بقي نائياً عند ضرغد (١)
فلو شاء ربى كنت قيس بن خالد ولو شاء ربى كنت عمرو بن مرثد
فأصبحت ذا مال كثير وزارنى بنون كرام سادة لمسود
على أنه لم يلبث أن سرى عن نفسه فاحرا بقوته وشجاعته وفتكه واغارته
بأبيات يقول في أولها

أنا الرجل الضرب الذى تعرفونه خشاش كراس الحية المتوقد (٢)
وفي آخرها على لسان من يقصد ابله فيغتصب منها ما شاء فيدعه خوفاً منه وفرقا
وقال ذروه إنما نفعها له والا تكفوا قاصى البرك يردد (٣)
ذاك نحره بنفسه ومن كان هذا شأنه كان جديراً اذا مات أن يبكى ولذلك
ساق القول بعد الى ابنة عمه طالبا منها أن تنعاه بما هو أهله قال

فان مت فاتعيني بما أنا أهله وشقى على الجيب يا ابنة معبد
ولا تجعلينى كأمري ليس همه كهمى ولا يغنى غنائى ومشهدى
ثم أخذ يجمال لها صفاته الى أن اختتم المعلقة بهذه الايات الثلاثة الخالدة

(١) ضرغد اسم جبل ناه (٢) الضرب الخفيف الجسم والخشاش الدخال (٣) البرك
الابل .

أرى الموت أعداد النفوس ولا أرى بعيدا غدا ما أقرب اليوم من غدا
 ستبدى لك الأيام ما كنت جاهلا ويأتيك بالآخبار من لم تزود
 ويأتيك بالآخبار من لم تبع له بتاتا ولم تضرب له كيف موعد
 هذه معلقة طرفة وهي على دارأيت منها شديدة الأسر قوية المعنى جيدة
 التشبيه ذات أمثال سائرة وحكم بالغة ولذلك اعتبرت أجود المعلقات ولو كان
 لطرفة من الشعر ما يقارب في الكثرة شعر الأربعة المقدمين امرئ القيس وزهير
 والنايف والاعشى لوضع معهم كما قال أبو عبيدة أو لفضلهم جميعا كما قال
 الكثيرون من الشعراء والرواة والأدباء

٣ - معلقة زهير

لم يسق زهير معلقته كما ساق زميلاه السابقان معلقتهما لغير ما سبب ظاهر
 سوى حفرة الشعر القاهرة تعبيرا عما في النفس من ضروب الأحاسيس
 والوجدانات بل قالها في غرض معين هو مدح هرم بن سنان والحرث بن
 عوف على تداركهما عبدا وذيان بالصلح بينهما في حرب داحس والغبراء
 وتحملهما في ذلك على غير جناية منهم الكثير من الديات وتلك يد تقاس عظمتها
 بما كان لتلك الحرب من شيوع ذكر وطول زمان ولكنه لم يجردها في ابتدائها
 من ذكر الدمن والأطال ووصف الطعائن إذا تحملن للأسفار فقد وقف على
 الدمن وأطال هذا الوصف فأجاد ووقع له من خيار التشبيهات تشبيهان
 حيث يقول

بكرن بكورا واستحرن بسحرة فبن ووادي الرس كاليد للقم
 فامسا وردن المساء زرقا جسماده وضعن عصي الحاضر المتخيم
 كأن نبات العهن في كل منزل نزان به حب الفنا لم يحطم (١)

(١) العهن الصوت والفنا عنب الذئب

ثم تركهم مقيمين الى ما أراد من تسجيل يد هرم وعوف فقال
 سعى ساعيا غيظ بني مرة بعد ما تبزل ما بين العشيرة بالدم (١)
 فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله رجال بنوه من قريش وجرحهم
 يميننا لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سجيل ومبرم (٢)
 تداركتما عبسا وذبيان بعد ما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم (٣)
 وقد قلتما إن ندرك السلم واسعا بمال ومعروف من القول نسلم
 فأصبحتما منها على خير موطن بهيدين فيها من عقوق ومأثم
 عظمين في عليا معاد هديتما ومن يستبح كنزا من المجد يعظم
 وبعد أن أفاض فيما احتمله هذان السيدان من مغارم أصبحت مغامر لذوى
 الديات انتقل الى المتحالفين يسألهم الاخلاص للصالح ويحذرهم مغبة الحرب
 واصفا سوء عواقبها وهو خير ما قيل فيها قال

ألا أبلغ الا حلاف عنى رسالة وذبيان هل أقسمتم كل مقسم
 فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم ليخفى ومهما بكم الله يعلم
 يؤخر فيوضع فى كتاب فيدخر يوم الحساب أو يهمل فينقم
 وما الحرب الا ما علمتم وذقتم وما هو عنى بالحديث المرجم
 متى تبهثوها تبهثوها ذميمة وتضرى اذا ضريرتموها فتضرم
 فتعركم عرك الرحى بشفاها وتلقح كشافا ثم تنتج فتشتم (٤)

(١) تبزل اشتد واختلط (٢) السجيل المقتول على قوة واحدة والمبرم المقتول على
 اثنتين (٣) منشم امرأة تبيع عطر التحالف أو رجل يبيع حنوط الميث (٤) ثفال
 الرحى ما يبسط تحتها ليقع عليه الطحين وتلقح كشافا تحمل مرتين فى
 السنة والاثام ولادة توأمين

فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم كأحمر عاد ثم ترضع فتتفطم (١)
 فتغفل لكم مالا تغل لا هاهنا قري بالعراق من قفيز ودرهم (٢)
 ولم يفته في هذا المقام أن يعيب على حصين بن ضمضم تخلفه عن الصباح على
 نية الأخذ بثأر أخيه وأن يحمد لمن ثار فيهم على بعد الوتر منهم قبولهم الدية
 احتراماً للصالح دون أن يجاروه القتال كما لم يفته أن يذكر قصد حصين على
 قوته وشدة بطشه وذلك قوله

لعمري لنعم الحى جر عليهم بما لا يواتيهم حصين بن ضمضم
 وكان طوى كشحا على مستكنة فلا هو أبداها ولم يتقدم
 وقال سأقضى حاجتى ثم أتى عدوى بألف من ورأى ملجم
 فشدوا لم يفزع بيوتا كثيرة لدى حيث ألقت رحلها أم قشعم (٣)
 لدى أسد شاكى السلاح مقذف له ليد أنظفاره لم تقلم
 جرى متى يظلم يعاقب بظلمه سريعا والا يبد بالظلم يظلم
 وكان زهيرا صفت نفسه وقد عاج هذا كله فأمدته روحانيته بتلك الحكم الفذة
 الكثيرة التى ختم بها معلقته فكانت فى بابها أبلغ دلائل على أن الفطرة إذا
 صفت أدركت ما يقف العقل أمامه حائرا لا يدري كيف كان لها إليه السبيل
 وهامى ذى

سئمت تكاليف الحياة ومن يعيش ثمانين حولا لا أبالك يسأم
 وأعلم علم اليوم والامس قبله واكنى عن علم ما فى غدعم

(١) المراد بأحمر عاد أحمر ثمود لا أنه العاقر (٢) يقصد بقوله من قفيز
 ودرهم أن الدراهم تكال بالقفيز (٣) أم قشعم المنية والقشعم النسر يأتى
 وراءها ليأكل من القتلى

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطىء يهرم فيهرم
ومن هاب أسباب المنايا ينالنه وان يرق أسباب السماء بسلم
ومن لم يصانع في أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنهم
ومن يهص أطراف الزجاج فانه يطبع العوالى ركبت كل لهزم (١)
ومن لم يندعن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتق الشتم يشتم
ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغفر عنه ويندم
ومن يوف لا يندم ومن يهد قابله الى مطمئن البر لا يتجمعهم (٢)
ومن يجعل المعروف في غير أهله يكن حمده ذما عليه ويندم
ومن بغرب يحسب عدوا صديقه ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
ومهما تكن عند امرىء من خليقة وان خالها تخفى على الناس تعلم
وكائن ترى من صامت لك معجب زيادته أو نقصه في التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق الا صورة اللحم والدم

٤ - معالقة لبيد

جاءت معالقة لبيد قطعة صادقة في تصوير البادية أصدق تصوير من النواحي
التي قصد اليها فانه بدأها بذكر الدمن في عفائها وكيف تحولات الى مراعى
عشب ونبات ومراتع ظباء ونعام ولاكتنها مع هذا قد جلت أطلالها السيول
فوقف يسألها وبقيت هى صما خوالد لا تبين فجاوزها الى تذكر أهلها الراحلين

(١) الزجاج جمع زج وهى الحديدة فى أسفل الرمح واللهزم السنان فى عاليتيه

(٢) التجمعهم الترحرح

وأخذ يصف الظعن وبتذكر نوار والمكنه عاد يقول لنفسه وما تتذكر من

نوار وقد نأت الى ديار لا أمل مع بعدها في لقاء

ومن جميل التشبيه في بعض ما تقدم قوله :

وجلا السيول عن الطلول كأنها زبر تجدد متونها أقلامها (١)

أو رجع واشمة أسف نؤورها كنفنا تعرض فوقهن وشامها (٢)

وقد أخذ على نوار ايفالها في رحلتها وأعلن عزمه على قطع لبانتها بأبياتها التي
يقول فيها

فاقطع لبانة من تعرض وصله ولشر واصل خلة صرامها

واحب المجامل بالجزيل وصرمه باق اذا ظلمت وزاغ قوامها (٣)

بطليح أسفار تركن بقية منها فأحرق صلبها وسنامها (٤)

ثم اندفع يصف النافذة ويطيل ولكنه عاد عن جعل الوصف في جسمها فجعله

في سيرها وأخذ يشبهها في سرعتها تارة بالسحابة الجاهم تطردها ريح الجنوب

وأخرى بأتان ملع حملت من أحقبق غيور وامتنعت عليه فرا به أمرها

وعلا بها حذب الآكام حتى اذا سلخا الشتاء بعيدين عن الماء وهبت ريح

الصيف اشتد بهما الظمأ ففزعوا الى الورود وانحدرا الى النهر انحدارا كان له

غبار كدخان نار أوقدت اليابس والرطب من النبات . وثالثة ببقرة وحشية

أكل السبع فريرها فأخذت تبيحث عنه سبعا كاملة الايام حتى اذا يئست وجف

(١) جمع زبور وهو الكتاب والمتون السطور (٢) الثور النقش المتخذ من

دخان السراج والنار والنقش المداد (٣) الكفف بكسر الكاف جمع كفة بالمكسر

وهي الدارة وكل مستدير وبالضم جمع كفة مضمومة لكل مستطيل وأسف

ذر وتعرض ظهر (٤) ظلمت عرجت يقصد الصحبة والطيح المعني وأحرق ضمير

ضربتها أحست صوت رماة أرسلوا خلفها الكلاب فكان لها عدو للنجاة شديد
فذلك حيث يقول

- واذا تغالى لحمها وتحسرت وتقطت بعد الكلال خدامها (١)
فلها هباب في الزمام كأنها صهباء خف مع الجنوب جهامها (٢)
أو مامع حملت لأحقب لاحه طرد الفحول وضربها وكدامها (٣)
يعلو بها حذب الآكام مسحج قد رابه عصيانها ووحامها (٤)

إلى آخر ما قال في الأتاتان ثم أعقبه بقوله في البقرة

- أفتلك أم وحشية مسبوعة خذلت وهادية الصوارقوامها (٥)
خنساء ضيقت الفرير فلم يرم عرض الشقائق طوفها وبغامها (٦)
علمت تردد في نهاء صمائد سبعا تؤاما كاملا أيامها (٧)
حتى اذا يئست وأسحق حالق لم يبله ارضاعها وفطامها (٨)
وتوجست رز الانيس فراعها عن ظهر غيب والانيس سقامها (٩)
فعدت كلا الفرجين تحسب أنه مولى المخافة خلفها وأمامها (١٠)

وبعد هذه الاطالة في وصف الناقة وسيرها أخذ يفتخر على النوار بأنه قضاء

-
- (١) تغالى ارتفع والخدام جمع خدامة وهى السير (٢) الهباب النشاط
والصهباء السحابة الحمراء (٣) المامع الأتاتان المشرقة أطباؤها بالبن ووسقت
حملت والأحقب العير فى ور كيه بياض ولاحه غيره (٤) المسحج المخذش من
العض (٥) المسبوعة التى أكل السبع ولدها الذى خذلته بتركه واتباع مقدم
الصوار وهو القطيع (٦) الفرير الولد ولم يرم لم يبرح والبغام الصوت (٧) علمت
انهمكت وصمائد موضع ونهاؤه غدرانه واحدها نهي (٨) الخاق الضرع
وأسحق ذهب لبنه بجفافه (٩) الرز الصوت (١٠) مولى المخافة موضعها

لبانات وصال قطاع يعاف مالا يرضى من الديار وأنه سمار ليال غلاء سباء
وزاع اغدوات الشمال وأنه يحصى الحى فيرتقى بفروسه المرتفعات في منباج الصباح
فاذا ما أمسى أسهل وفروسه لا يزال منتصباً للحراسة في البيات وأنه مع هذا
حلال مشكلات في المجامع والمقامات نحر بالقداح لجزر الايسار يدعو بهن
لذوى الحاجات والضيغان ممن يأوون الى أطنا به فيجدون الخصب والثراء وهذا
بعض ما قال

فبتلك اذ رقص اللوامع بالضحى	واجتاب أردية السراب أكامها (١)
أقضى اللبانة لأفرط ريبة	أو أن يلوم بحاجة لوامها
أو لم تكن تدرى نوار بأنى	وصال عقد حبائل جذامها
تراك أمكنة إذا لم أرضها	أو يعتاق بعض النفوس حمامها
أغلى السباء بكل أدكن عاتق	أوجونة قدحت وفض ختامها (٢)
وغداة ربح قد وزعت وقرة	قد أصبحت بيد الشمال زمامها (٣)
ولقد حميت الحى تحمل شكى	فرط وشاحى إذا غدت لجامها (٤)
وكثيرة غرباؤها مجهولة	ترجى نوافلها وينحش ذامها (٥)
أنكرت باطلها وبؤت بحقها	عندى ولم يفخر على كرامها
وجزور أيسار دعوت لحتفها	بمغلق متشابه أجسامها (٦)

(١) يقصد لوامع السراب واجتاب الآكام أرديته لبسها أى احتدمت
الهواجر (٢) السباء شراء الخمر والادكن العاتق وصفان للزق والجلونة الخابية
السوداء وقدحت ملئت منها القداح (٣) وزعت نفعت بالنحر (٤) الفرط الفرس
المتقدمة السريعة (٥) يقصد الدار تقوم فيها المقامة (٦) الايسار أصحاب الميسر
واحد هم يسر والمغلق السهام واحد ما مغلق

أدعوهن اعاقروا أو مطلق بذات الجيرات الجميع لحامها
فالضيف والجار الجنيب كأما مبطا تبالة مخصبا أهضامها
ذلك فخره بنفسه وقد أعقبه فخره بقومه ينسبهم الى سيادة المحافل وحسن
سياسة العشيرة وأن تلك سجايا فيهم يجدر بالحاسد ألا يطمع فيها لأنها حياء
لهم من المليك لما جبلوا عليه من معالي الامور قال

إنا اذا التفت المجامع لم يزل منا لزار عزيمة جشامها (١)

ومقسم يعطى العشيرة حقها ومغذ مر لحقوقها هضامها (٢)

فضلا وذو كرم يعين على الندى سمح ككسوب رغائب غنامها

من معشر سنت لهم أبأوهم وكل قوم سنة وامامها

لا يطبعون ولا يبور فعالمهم إذ لا يميل مع الهوى أحلامها

ثم التفت يخاطب الطامع في مثل مكانتهم بقوله

فاقنع بما قسم المليك فانما قسم الاخلاق بيننا علامها

وإذا الامانة قسمت في معشر أوفى بأوفر حظنا قسامها

فبني لنا بيتا رفيعا سمكه فسمي اليه ككهلها وغلامها

إلى أن ختم المعلاقة بأبيات أخر يجمال فيها ما عرفوا به من مكارم الاخلاق

هـ — معلاقة عمرو بن كلثوم

خالف عمرو رجال المعلاقات فلم يبدأ معلقته بذكر الدمن والديار وتعرف

الآثار والاطلال إنما بدأها بوصف الخمر وتأثيرها والدعوة الى الاستصباح

بها وانتهاجها والكنه لم ينس أن يستوقف الظعينة قبل التفرق لتخبره هل أحدثت

(١) لزاز العظيمة قرينها (٢) المغذ مر الغضوب لاجل حقوق العشيرة

الهضام لحقوق نفسه

صرما وقطعا ويخبرها بما له أيام الكربة من بلاء يقر العيون ثم أخذ يصف
وجوه محاسنها ووجدته يرافقها في أبيات طويلة أنهي بها تشبيها قصيدته
قال في مبدئها

ألا هي بصبحتك فاصبحينا ولا تبقى خمور الأندرينا (١)
مشعشة كأن الحص فيها إذا ما الماء خالطها سخينا (٢)
وقال

قفي قبل التفرق يا طعينا نخبرك اليقين وتخبرينا
قفي نسألك هل أحدث صرما لو شك البين أم خنت الامينا
وقال

تريك اذا دخات على خلاء وقد أمنت عيون السكاشينا
ذراعى عيطل أدماء بكر هجان اللون لم تقرأ جنينا (٣)
إلى آخر ما وصف ثم قال

فما وجدت كوجدى أم سقب أضلته فرجعت الحنينا (٤)
ولا شطاء لم يترك شقاها لها من تسعة الأجنينا
وبعد إذ خرج الى الغرض الذى من أجله قرض المعلقة وهو التفاوض بقتله
عمرو بن هند فى حادث يذكر له الرواة قصصا وحكايات ولا يعدو عندى أن
يكون هذا القتل وقع باتفاق بينه وبين البيت المالك لما كان من طول الحكم لعمرو

(١) الأندرون قري بالشام (٢) المشعشة الممزوجة والحص نبت أحمر
النور (٣) العيطل الطويلة العنق من النوق والادمة فى الابل البياض وإذا
الجنة ولم تقرأ لم تحمل (٤) السقب ولد الناقة قبل فصاله

وشدة عسفه بأهله ولذلك أسدلوا الستار عليه فلم يشنوا حربا ولم يطلبوا بثأر
وانما اختير ابن كاثوم لأنه رئيس تغاب وكثيرا مغاضبها ابن هند وظاهر
بكرها عليها كما حدث بعد سماعه بعاقبة ابن حنزة نلى ما سيأتى فى بعض ما كان
بينهما من خلاف على أنى اذا لم أجزم بهذا الاتفاق فلا أقل من أن أقول لقد
وقع القتل على قلوب المناذرة بردا وسلاما وبخاصة صاحب التاج من بعده وهو
أخوه النعمان هذا وقد بدأ ابن كاثوم نفيه بمخاطبة الملك القليل سيخرية وتم كما
مخطابا يذكره فيه بأيام لهم غر طوال وبقدمهم منذ القدم فى الحروب وعركهم
من يتعرض لهم وحمايتهم من يستجير بهم وأنهم لم يعادلوه بغير ما عادلوا به الملوك
من عصيان وخروج منذ أيام خرازي الى حيث قتلوه وكان ذلك منه فى أكثر
من خمسين بيتا هذا بعضها

أبا هند فلا تعجل علينا وأنظرنا نخبرك اليقيننا
بأننا نورد الرايات بيضا ونصدرهن حمرا قد رويننا
وأيام لنا غر طوال عصينا الملك فيها أن ندينا
إلى أن قال

متى ننقل الى قوم رحانا يكونوا فى اللقاء لها طحيننا
يكون ثفالها شرقى نجد ولهوها قضاة أجمعينا (١)
والى أن قال

ألا لا يعلم الاقوام أنا تضعضعا وأنا قدورينا
ألا لا يحبان أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

(١) ثفال الرحى ما يسط تحتها ولهوتها النبضة من الحب تلقى فيها

بأى مشيئة عمرو بن هند نكون لقيلكم فيها قطينا (١)
 بأى مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة ونزدرينا
 تهددنا وتوعدنا رويدا متى كنا لأمك مقتويننا (٢)
 فأت قناتنا يا عمرو أعيت على الأعداء قبلك أن تليتنا
 إذا عض الثفاف بها اشمأرت وولته عشوزنة زبونا (٣)
 عشوزنة إذا انقلبت أرت تشج قنما المثقف والجبيننا
 ثم أخذ يفخر برجالهم الأقدمين ويهدد ما أثرهم وأيامهم مشركا معهم بنى عمهم
 بكر واسكنه لم يرض أن يكونوا مثاهم في هذه المفاخر قال
 ونحن غداة أوقد في خزازي رفدنا فوق رفد الرافديننا (٤)
 وكنا الأيمنين إذا التقينا وكان الأيسرين بنو أبينا
 فصالوا صولة فيمن يليهم وصلنا صولة فيمن يلينا
 فأبوا بالنهاج وبالسبايا وأبنا بالمساوك مصفديننا
 ومن هنا أخذ يفخر على بكر وينذركم بما كان لهم عليهم من غلاب وقد أجاد
 حيث يعالج ذلك وحصف الدروع والنساء وراء الخيل يوم الروع قال
 علينا كل ساقفة دلاص ترى فوق النطاق لها غضونا (٥)
 إذا وضعت عن الأبطال يوما رأيت لها جلود القوم جونا
 كأن غضونها متوف غدر تصفقها الرياح إذا جرينا

(١) القطين الخدم (٢) المقترون جمع مقتوى بطرح ياء النسبة نسبة إلى
 المقتى وهو المصدر الميمى اغتا يقتى إذا خدم الملوك (٣) العشوزنة الصلبة الشديدة
 والزبون الدفوع (٤) خزازى جبل ويقصد يوما كان عنده بين نزار وبين
 (٥) الساقفة الدرع التامة والدلاص البراقة والغضون التشجعات جمع غضن

وتحملنا غداة الروح جرد عرفن لنا نقائد وافتائنا (١)
 على آثارنا بيض سمان نحاذر أن تقسم أو تمونا
 أخذن على بعولتهن شوا إذا لاقوا كتاب دعائنا
 ليستلبن أفراسا ويضربن وأسرى في الحديد مقريننا
 إذا مارحن بمشين الهويني كما اضطربت متون الشاريننا
 يفتن جياننا ويقان نسيم بعولتنا إذا لم تمنعونا
 إذا لم نحمهن فلا بقينا لشيء بدهن ولا حييننا

ذلك نخره وقد رأى أن يدعمه بأنه معروف لقبائل معد فكلمها تعترف لهم يوم
 الفخار بكرمهم وفتكهم وعزتهم وإبائهم ومن ثم عاد إلى مثل ما بدأ به مع ابن هند
 فكان ختام المعركة قال

وقد علم القبائل من معد إذا قيب بأبطحها بنينا
 بأنا المطعمون إذا قدرنا وأنا المملكون إذا ابتليننا
 وأنا المانعون لما أردنا وأنا التازلون بحيث شينا
 وأنا التاركون إذا سخطنا وأنا الآخذون إذا رضينا
 وأنا العاصمون إذا أطعنا وأنا العارمون إذا عصينا (٢)
 ونشرب أن وردنا الماء صفوا ويشرب غيرنا كدرا وطينا

ثم قال

إذا ما الملك سام الناس خسفا أئينا أن نقر الذل فينا
 لنا الدنيا ومن أمسى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا
 إذا بلغ الرضيع لنا فطاما نخر له الجبار ساجديننا

(١) النقائد ما أنقذت من أيدي الأعداء وانقاذها لإلادها (٢) العارمون

ذوو العرام وهو الحدة

٦ — معالمة عنبرة

جاءت معالمة عنبرة لغير غرض خاص كما جاءت معلمات امرىء القيس
وطرفة ولبيد وقد بدأها بما بدعوا به فوقف على الاطلال وخاطب الديار كما
هى سنة الشعراء ثم أبان أنه يخاطب دار عبلة وأخذ يستوحى الجواب ويصف
صاحبتهما قال

يادار عبلة بالجواء تكلمى وسمى صبا حادار عبلة واسمى (١)
دار لآيسة غمض طرفها طوع العناق لذينة المتبسم
وعاد ثانية يستوقف النافقة على طال عبلة ويحييه ويستبعد الديار التى حلت بها
ويعجب كيف يكون المزار ثم خلاص من هذا الى وصف ما لعبلة من حسن ثغر
وطيب مقبل فأجاد قال

إن تستبيك بنى غروب واضح عذب مقبله لذينة المطعم (٢)
وكان فارة تاجر بقسيمة سبقت عوارضها اليك من الفم (٣)
أو روضة أنفا تضمن نبتها غيث قليل الدمن ليس بمعلم (٤)
جادت عليه كل بكر حرة فتركن كل قرارة كالدرهم
سحا وتسكبا فكل عشية يجرى عليها الماء لم يتصرم
وخلا الذباب بها فليس يبارح غردا كفعل الشارب المترنم
هزجا يحك ذراعه بذراع، قدح المكب على الزناد الا جذم (٥)
وبعد هذا التشبيه الطويل عاد الى عبلة يذكر تنعمها على الوثير من الفراش

(١) الجواء موضع بهيمة (٢) الغروب جمع غرب وهو الحد (٣) فارة المسك
آنيته لأنه يفور منها والتقسيمية الحسنة التقاسيم (٤) الانف التى لم ترع وتضمن
سقى (٥) هزجا مصوتا واللاجذم الناقص اليد

بينما هو على سرج فرسه وأخذ يتمنى أن تبلغه أياها شذنية غير ولود وانساق
يصف هذه الناقة ويشبهها بالظلم تأوى له قاصص النعام كأنه العبد الأصلم
ذوالقرو الطويل وما أبين قوله إذ يذكر اندفاعها في سيرها

وكأنما تنأى بجانب دفنها ال وحشى من هزج العشى مؤوم (١)

هر جنب كلما عرضت له غضيبي انتفاها باليدين وبالقلم

وما انتهى من صنعة الناقة حتى أوغل فيما هو قصده في معانته من ذكر فروسيته

وبطولته وبدأه بقوله لعبارة لا تغافل في دوني القناع فان من يأخذ الفارس

المستلأم مثلي جدير أن يجوزك وينال منك الثناء بما هو أهله فاني سمح المخالطة

من المداقة شراب مدام لا يمنع الصبحو كرمي ولا تنال الذشوة عرضي

فاذا شربت فاني مستهلك مالي وعرضي وافر لم يكلم

واذا صحت ثما أقصر عن ندي وكما غامت شمائلي وتكرمي

وهذا معنى لم يحار فيه وقد أخذ بعده بعد مواقف بطولته فيقول كم من حليل

غانية ولا يحل لها الا البطل قد جندلته ومدجج كره الكماة نزاله قد طعنته وحامي

حتمية معلم بهندي قد علوته ولم ينس في هذه المواقف الثلاثة من حماسه أن

يخلطها بنسيبه في عبارة كما هو دأبه. قال في أولها

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك إن كنت جاهلة بما لم تعلمي

يخبرك من شهد الواقعة أنني أغشى الوغى وأعف عند المغم

ويقول في نهايتها

ياشاة ماقتص لمن حلت له حرمت على وليتها لم تحرم

(١) اللب الجنب والوحشى الأيمن لانه لا يركب منه. والمؤوم القبيح الرأس

فبعثت جاريتي فقامت لها اذني وتجسسى أخبارها لي واعلمى
 قالت رأيت من الاعادى شرة والشاة محمكة لمن هو مرتضى
 وكأنا التفت بجيد جداية رشاً من الغزلان حر أرشم (١)
 وعاد من هذا الى ذكر مواقفه ناعيا على لا يشكر نعمته بجحود فضله
 وذاكرا أنه حريص على وصاة عمه بالثبات في أخرج المضايق فكان منه في الكلام
 عن فرسه هنا ابداع ليس بعده مثال قال

لما رأيت القوم أقبل جمعهم يتنامرون كررت غير مذمم (٢)
 يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بر في لبان الادم (٣)
 مازلت أرميهم بشرة نحره ولبانه حتى تسربل بالدم
 فازور من وقع القنا بلبانه وشكا إلى بعبرة وتحمحم (٤)
 لو كان يدري ما المحاربة اشتكى والكان لو علم الكلام مكلمى
 وزاد ذلك منه نبلا وكرما أن جعل في نداء الفوارس له بالاقدام في الشدائد
 ما يشفى نفسه ويبرىء سقمه قال

ولقد شفى النفس وأبرأ سقمها قيل الفوارس ويك عنتر أقدمى
 ثم ختم المعركة بخشيته الموت قبل أن ينال من ابني ضمضم لتوعدهما اياه بعد قتله
 أباهما قال

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر للحرب دائرة على ابني ضمضم (٥)
 الشامي عرضي ولم أشتهمها والناذرين اذا لم آلقهما دمي
 إن يفعلوا فلقد تركت أباهما جزر السباع وكل نسرقشهم (٦)

(١) الجداية ولد الطبيعة والرشاً القوي والأرشم الذي في شفته العليا وأنفه
 بياض (٢) يتنامرون يتحاضون على القتال (٣) أشطان البر حباله واللبان الصدر
 (٤) ازور مال وتحمحم الفرس صهيله بخنين (٥) هما حصين وهرم (٦) القشهم المسن

٧ — معلقة الحارث ابن حنظلة

قيلت هذه المعلقة لغرض خاص هو استمالة عمرو بن هند الى بكر والحارث
منها في مقاضاة كانت عنده بينها وبين تغلب قوم عمرو بن كاثوم قاتل ابن هند
كما سبق وقد احتذى حذو الشعراء في بلغتها فأبدى تحرقه على بين أسماء وأخذ
بذكر عهدها السالف ومكانها النائي فيبكي وما يحير البكاء قال

آذنتنا ببلينها أسماء رب ثار يمل منه الثواء

بعد عهد لنا ببرقة شما فأدنى ديارها الخلاء (١)

لا أرى من عهدتها فيها فأبكي اليوم دلهما وما يحير البكاء (٢)

وأردف ذلك بذكر النافذة يستعين بها على الهم ويصفها وقد بلغ في ذلك ما أراد
في إيجاز وحسبك قوله

غير أنى قد أستعين على الهم إذا خف بالثوى النجاء (٣)

بزفوف كأنها هائلة أم م رثال دوية سقاء (٤)

آنست نبأة وأفزعا القنة ناص عصرا وقد دنا الأسماء

فترى خلفها من الرجوع والوفا مع منينا كأنه أهباء (٥)

ومن هنا انتقل الى موضوع المعلقة فبدأ يصف ظلم بني عمهم إياهم وتبعية لهم
الشمر وقد أجاد في وصف التهيؤ للحرب ما شاءت له الإجابة حيث يقول

(١) العهد اللئيم (٢) الداه ذهاب العقل وما يحير ما يرجع (٣) الهم ما يهم به

(٤) الزفوف السريعة والهائلة النهاية والدموية نسبة الى الدو وهو الصيحر

والسقاء الطويلة مع الخناء (٥) المنين النبار الرقيق والأهباء جمع هباء وهو ما تطاير

وأنا من الحوادث والآن جاء خطاب نهى به ونساء
 أنت اخواننا الراقم يغزو ن علينا في قياهم إحناء (١)
 يخطون البرى منا بذى الذى ب ولا يتبع انالى الخلاء
 زعموا أن كل من ضرب الله ير موال لنا وأنا الولاء (٢)
 أجمعوا أمرهم عشاء فلما أصبحوا أصبحت لهم ضواء
 من مناد ومن عجيب ومن تصه مال خيل خلال ذلك رغاء
 ثم أخذ يخاطب من وشى بهم الى عمرو بن هند بأنهم واثقون من عدل الملك
 على أنهم غير خائفين وقد بما وشى بهم فكانت ما نعتهم حصونهم وهذا إذ يقول
 أيها الناطق المرقش عدا عند عمرو وهل لذلك بقاء (٣)
 ملك مقسط وأفضل من شى ومن دون مالدیه التناء (٤)
 لا تخلنا شلى غراتك إنا قبل ما قد وشى بنا الاعداء (٥)
 فبقينا على الشناعة تاه مينا حصون وعزة قعساء (٦)
 وأتبع هذا بأنهم مع قدرتهم ذوو أهبة لقبول أية خطة فى الصالح تراد وأنهم
 أكفء لمقابلة ما يطلب منهم بمثله وأخذ يذكر ماضيهم تأييداً لما يقول قال
 أيما خطة أردتم فأدو ها اليها تمشى بها الاملاء (٧)
 وبعد أن بين أنواع الخطط فى أبيات له أعقبها بقوله
 هل علمتم أيام ينتهب الناس غوارا لكل حى عواء (٨)

(١) الراقم لقب لبطون من تغلب والاحفاء الاخاح (٢) العبر هذا السيد والمراد
 كليب وضربه الرضا بقتله وقوله وأنا الولاء أى أصحاب الولاء (٣) المرقش
 المريب المشكك (٤) المقسط العادل والقاسط الجائر (٥) الغرارة الاغراء
 (٦) تنمينا ترفعنا (٧) الاملاء جماعات الاشراف جمع ملاء (٨) الغوار المغاورة

إذ ركبنا الجمال من سعة البحر وبين سيرا حتى نراها الحساء
ثم ملنا على تميم فاحرمه بنا وفيها بنات صر إماء (١)
لا يقيم العزير بالبلد السمر لي ولا ينفع الذليل النجاء
ثم عاد الى المبلغ عنهم ثانية يذكره بأن طم على عمرو بن هند ثلاث آيات آية
ردهم قيس بن معد يكرب الحميري عنه وقد نزا الخيرة في معد كلاما وكذا حجير بن
أم قطام وقد غزاها أيضا في فارسية خضراء . وآية فيكم غل امرئ القيس
اللاخمي من الغساسنة وإقادتهم بأبيه المنذر إذ قتلوه من ربهم والثالثة أنكم
اختتمهم فأمه منهم وهم قد ولدوه وفي ذلك يقول

أيها الناطق المبلغ عنا عند عمرو وهل لذاك انتهاء
من لنا عنده من الخير آيا ت ثلاث في كلهن القضاء
آية شارق الشقيقة إذ جا عوا جميعا لكل حي لواء (٢)
حول قيس مستلثمين بكبش قرظى كأنه عبلاء (٣)
فرددناهم بطعن كما ينح رج من خرتة المزدالماء (٤)
ثم حجرا أعنى ابن أم قطام وله فارسية خضراء (٥)
وفككنا غل امرئ القيس عنه بعد ما طال حبسه والعناء (٦)

(١) أحر مناد خلنا في الأشهر الحرم (٢) الشقيقة أرض صلبة بين رملتين
وشارق مضى وهى من إضافة الصفة الى الموصوف والمراد اسم مكان كانت
به الموقعة (٣) يريد قيس بن معد يكرب الملك الحميري والكبش السيد والقرظى
كناية عن أنه شديد الوطأة لأن القرظ شجر يدبغ الاديم والعبلاء الهضبة
البيضاء (٤) المزد الزقاق وخرتتها ثقبها (٥) هو والد امرئ القيس (٦) يقصد
أحد اللخمين لا امرأ القيس بن حجر

وأقدناه رب غسان بالماء نذر كرها لا تكال الدماء (١)
 وولدنا عمرو بن أم أياس من قريب لما أتانا الحباء (٢)
 ثم عاد الى تغلب يطلب اليهم أن يتركوا التكبر والتعالي ويذكروا حلف ذي المجاز
 وما قدم فيه من عهد وكفله من كفلاء حذر الجور والتعدي مثل ما يذكرونهم قال
 فاطر كوا الطيخ والتعاشي وإما تتعاشوا ففي التعاشي الداء (٣)
 واذكروا حلف ذي المجاز وما قدم فيه العهد والكفلاء (٤)
 حذر الجور والتعدي وهل ينقض ما في المهارق الا هواء (٥)
 واعلموا أننا واياكم في ما اشترطنا يوم اختلفنا سواء
 وبعدئذ أخذ يعيرهم بجنايات غيرهم عليهم وأنه لا يحمل بهم أن يحملوهم جرمهم
 فيقول

أعلينا جناح كندة أن يغفـــــــــــــــــنم غازيهم ومنا الجزاء
 وهكذا أكثر التعداد حتى ختم المعلقة بتغلبهم عليهم يوم الحيارين كيلا
 يظنوا فيهم ضعفا أو أنهم ليسوا كمؤلاء مستشهدا على ذلك اليوم بالرب وهو
 الملك حيث يقول

وهو الرب والشهيد على يوم الحيارين والبلاء بلاء (٦)

(١) رب غسان ما مكها (٢) الحباء المهر (٣) الطيخ التكبر والتعالي التعامي
 (٤) ذو المجاز موضع أصلاح فيه عمرو بن هند بن بكر وتغلب (٥) جمع مهرق
 وهو خرقة تطلى وتصفق ليكتب عليها (٦) كان لبكر على تغلب ويقصد بالرب
 عمرو بن هند

مميزات الكلام الجاهلي

إن الكلام الجاهليين سمات عامة تتناول النثر والشعر معا وأخرى خاصة بكل منهما

أولا - المميزات العامة

فالعامية يراها المطالع عليه في عباراته ومعانيه والغرض العام الذي يرمى اليه وهامى ذى

١ - في العبارات

أول ما يلاحظ على عباراته خلوها من اللاحن لتمكن السليقة فيهم وقلة اختلاطهم بغيرهم وليس معنى هذا أنه لم يك من أحدهم خروج على المصطلح العام بل معناه أن ذلك الخروج كان قليلا وعن غير الصميم وهو ما سمي بالشاذ والمسموع بخلاف الخروج في العصور الإسلامية بعد فقد كثير وعارض الأسس ولذلك لم يحجم واضعو أصول العربية عن تسميته لحنا وخطأ مفرقين في التسمية بين النوعين

ثانيا - خلوها من الدخيل وسببه سبب عدم اللاحن غير أن اختلاطهم بمن جاورهم من الأمم بعض الاختلاط بحكم الجوار جعلهم يأخذون من لغاتها وبخاصة الفارسية كلمات أدخلوها كلامهم ولكنهم أحدثوا فيها صفلا فربها من لغتهم وأعطوها جرسها فأصبحت كأن لم تك غريبة عنها ولذلك لم يطلق عليها اسم المعرب كما أطلق على ما اقتبس بعد

ثالثا - إيجازها فقد كانوا يرون البلاغة في الإيجاز . وإن كانوا فرسانها إلا أنهم لم يقدروا على تحقيق ما رأوا دون إخلال بالمعاني ولا بما قصدوا

اليه من أغراض ولهذا كانوا يفضلون من الجمل القصير وإذا خرجوا عنه فالى
المتوسط لا الطويل

رابعاً — ارساها على ما تقتضى البلاغة الفطرية دون تكلف فيها ولا مراعاة
لما أتت به الصناعات اللفظية بعد فقها يرى لهم تأنيق في انتقاء ألفاظ متناسبة
الوزن متشابهة النغم أو صوغ عبارات ذات جناس أو طباق أو غيرها من
محسنات البديع إلا ما أتى عفواً غير مقصود

خامساً — اشتمالها على كثير من الالفاظ المترادفة على القول بأن هناك
ترادفاً حقيقياً جاء من اختلاط القبائل وتعرف بعضها لغات بعض أما على أنه
لا ترادف في الواقع وأن لكل مرادف خصوصية كانت تعرفها العرب له على
مرادفه وأنا نسينا ذلك نحن فلا ترادف إلا من حيث الظاهر فقط وهى على
كلتا الحالتين لا تخرج عن أن تسمى خاصة ومميزاً
ب — فى المعاني

كانت المعاني فى الجاهلية قاصرة على الحقيقة وإذا جاوزتها الى غيرها فالى
المجاز ذى العلاقة البارزة التى لم يلبث معها طويلاً حتى صار حقيقة فى كثير من
الالفاظ . أو إلى الكناية قليلة الوسائط مع قرب المثال أو كثيرتها مع شدة
اللزوم اللهم إلا ما كان رمزاً مقصوداً وكثيراً ما كانوا يعمدون فى الكناية
الى التعريض انتقاء التصريح بما يستهجن أو غيره لسبب ما فلا يقع فى ذلك
فحش ولا خفاء . وكانوا اذا تخيلوا لا يخرجون فى ذلك عن الخيال المنزع
الصورة من الحس الظاهر والواقع فى دائرة الامكان العادى أو العقلى الا ما قصدوا
فيه الى هذا الخروج كخيالهم فى موارد الأمثال الفرضية وبعض الاوابد

ج — فى الغرض العام

أما الغرض العام الذى يرمى اليه فكان يدور حول ما تقتضيه البداوة

والفطرة الخاليتان من تكلف أهل الحضر وتأنقهم ويكسده ذلك ينحصر في وصف المعيشة البدوية ومراقتها من سهل وترحال واستدار غيث وانتجاع كلال واستنبات نبت ونتيج حيوان وفي إثارة المنازعات والمشاحنات وما تجر اليه من محض على ادراك ثار وقول في نهي ميت وتفاخر بمال وولد وتباه بشجاعة وانتصار وتشرف بكرم محتد وحوز فضيلة ثم في وصف ما يشاهد بجزيرتهم والأخبار عما يقع فيها بما يناسب بيئتهم ويتفق وطبعتهم

ثانياً — المميزات الخاصة

١ — في النثر

يمتاز النثر الجاهلي فوق ما تقدم في المميزات العامة بما يأتي أولاً مجيء السجع فيما أثر منه أكثر من الازدواج والازدواج أكثر من الترسل وإنما قلنا فيما أثر لأن طبيعة صدور الكلام تأتي إلا أن يكون الواقع العكس وإنما علق المسجوع بالاذهان أكثر من أخويه كما تقدم لسهولة حفظه ولأنه كان المقصود في مهام الأمور على أنه قد كانت هنالك طائفة لا تتكلم إلا المسجوع هي طائفة السكينة والعرافين لما للسجع من جمال الوقع على الأسماع وشدة التأثير في القلوب وهذا ما يريدون وقد انقرضت هذه الطائفة بالاسلام وكان أكثر الكلام ترسلاً وولاه الازدواج ثم السجع فكانت الحال معاكسة لما أثر أو موافقة لما كان في الحق هو الواقع

ثانياً — كثرة أمثاله بنوعها ومجى حكمة كثيرة وعلى مقتضى الفطرة أيضاً فإن الأمثال تكاد تكون قاصرة على العهد الجاهلي وما جاء بعد لا يعدو حد الذلة وأغلبه على صيغة أفعال . والحكم لا تكاد تحوي تعمقاً في فكرة

أو اغرافا في فلسفة لما كانت عليه العرب من حال بدعوة لا تعمق فيها لعلم ولا زخرف لحضارة وإنما ساعدها على الأكثر من هذين النوعين رجحان عقولها وسلامة فطرها مع تماكها زمام الفصاحة واعتدالها على الإيجاز

ثالثا — تفردت بالمنافرة على معناها الجاهلي فاعرفت في الإسلام منافرات فرضت فيها الجهول وهرع من أجلها المتنافران إلى الأحكام وكذا بالمفاخرة فيما نهى عنه الدين بهد وهو أكثر ما كان في هذا الباب فقد صار جل تفاخر المسلمين بالدين والتقوى وما يقدم من صالح الأعمال للأفراد والجماعات إلى غير ذلك مما يحض عليه الدين

رابعا — اختلافه في الأغراض العامة لخطبه ووصاياه عما كان بهد فقد بقيت الخطب والوصايا في عهود الإسلام إلى وقت طويل ولكن التبديل الكبير للعرب في الدين والسياسة والمعيشة والاجتماع باين كل المباشرة في هذه الأغراض فمات بعضها كشن الغارات والاختذ بالثأر وحلت الكتابة محل الخطابة في بعض آخر كالسنارات وتحوير بعض ثالث تحورا كبيرا في بواعثه وما آخذ كالخض على القتال إذ صار للنتيج والجهاد وكالامر بالمعروف والنهي عن المنكر إذ صارت مما آخذ من تعاليم الدين وكذا خطب الاملاك وقلمها بفي غرض على حاله كالدعوة إلى السلم

ب — في الشعر

يمتاز الشعر الجاهلي بهد الذي سبق في المميزات العامة بما يأتي

أولا — اشتغال كثير منه على بعض الالفاظ الغريبة بالنسبة إلينا نحن لا إلى وسطهم هم فان ذلك جاء نتيجة لما أهمل بهد الجاهلية من أغراض كانت كثيرة القصد فيها كوصف الابل وحر الوحش والقسي ونحوها مما كان من

صميم البادية وهجر فهجرت لذلك الالفاظ التي كانت تؤدي بها معانيه
وأصبحت ذات غرابة علينا ولو بقيت تلك الاغراض مؤداة لكانت ألفاظها
وما تستعمله الآن سواء

ثانياً — جزالة الالفاظ وضخامة التراكيب ذلك بأنهم كانوا على تمام
علم ودراية بمفردات لغتهم والمواطن اللائقة باستعمالها ثم كانوا ذوي قدرة وإقامة
على التصرف في الاساليب بما يكسبها القوة والمتانة وبخاصة في الاغراض المتطلبة
لها كالحماسة والفخر والوعيد والانهذار ونحوها أما غيرها مما يقتضى رقة
كالنسيب مثلاً فقد كانوا غالباً يتمخرون له من الالفاظ ما فيه عذوبة ومن
التراكيب ما هو ذو سلاسه

ثالثاً — اتفاق بدء القصائد في التشبيب الذي لا يعدو الوقوف على الدمن
ومخاطبة الاطلال ووصف الطعون والتحرق على بعد المزار ونعت النوق التي
ترحل للمحاق بالاحباب ثم وصف هؤلاء الراحلين على خلاف بينهم في اطالة
بعض هذه الجزئيات أو تقصيرها واستيفائها كلها أو إسقاط بعضها
رابعاً — عدم حسن التخلص من غرض الى غرض في القصيدة الواحدة
فقد كان يحدث الانتقال فجأة دون تمهيد أو بتمهيد ضئيل لا يعدو أن يكون
لفظة أو اثنتين كدع ذا وعد عن ذا ونحوها وبمثل هذه المفاجأة كان
ينتهي القصيد

خامساً — اجادة وصف مظاهر البادية في كل ناحية من نواحيها وتسجيل
كثير من أوامد العرب عوائد وعادات. فالشعر الجاهلي وحده يكاد يكون المرجع
فيما عرف من هذه الأشياء بخلاف الشعر الاسلامي لبعده رجالة عن البادية سكنا
ولتغير أحوالهم العامة تغيراً كبيراً يجعلهم اذا عالجوا ذلك عاجزاً عن تكلف منهم

وتقاييد لاسلافهم لا يصدر عن شعور ولا يتزع من وجود

سادسا — تصويره للاشياء على حقائقها من غير ما مباينة بله الفلو
والاغراق للذين كثيرا بعد وانما جعلهم كذلك أن كانوا على فطرة طبيعية
لا تكلف فيها وعلى جانب من الحرية لا يحد من فكر ولا يقيد في قول ويتضح
هذا جلليا في الوصف كما يتضح في سائر فنون الشعر . فالمتفزل لا ينعت محبوبته
بالمستحيل من الصفات ولا يدعى لنفسه اذا نسب الموت في هواه دون موت .
والشجاع المتحمس لا يزعم أنه مزلزل الارضين محرك الراسيات . والفخور
لا يجاوز ما لنفسه وقبيله من محامد وتراث . والرائي لا يزعم بموت المرئي ظلام
الوجود واختلال نواميس الحياة . وكذلك المدح والهجاء كان فيهما الاعتدال
إلا إسراف في الاول ولا إقذاع في الثاني إلا ما كان آخر العهد لدى بعض
الشعراء ممن اتخذوها وسيلة للتكسب رغبا ورهبا ومع هذا لم يصل الى شيء مما
بلغاه بعد في سائر العهود

سابعا — شدة تأثيره في ذلك العهد أكثر من غيره كما بيناه آتفا حقا كان
أم باطلا لان شعور القوم إذ ذاك كان أغلب على عقولهم شأن ذوى الفطرة
والسذاجة البعيدين عن تثقيف العلم وتقويم الحضارة
وبعد فان فيما سلف من نماذج وغير نماذج لمختارات النثر والشعر لا آيات
بينات على ما ذكرنا من خصائص ومميزات فليرجع اليها في ضرب المثل
والاستشهاد وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب